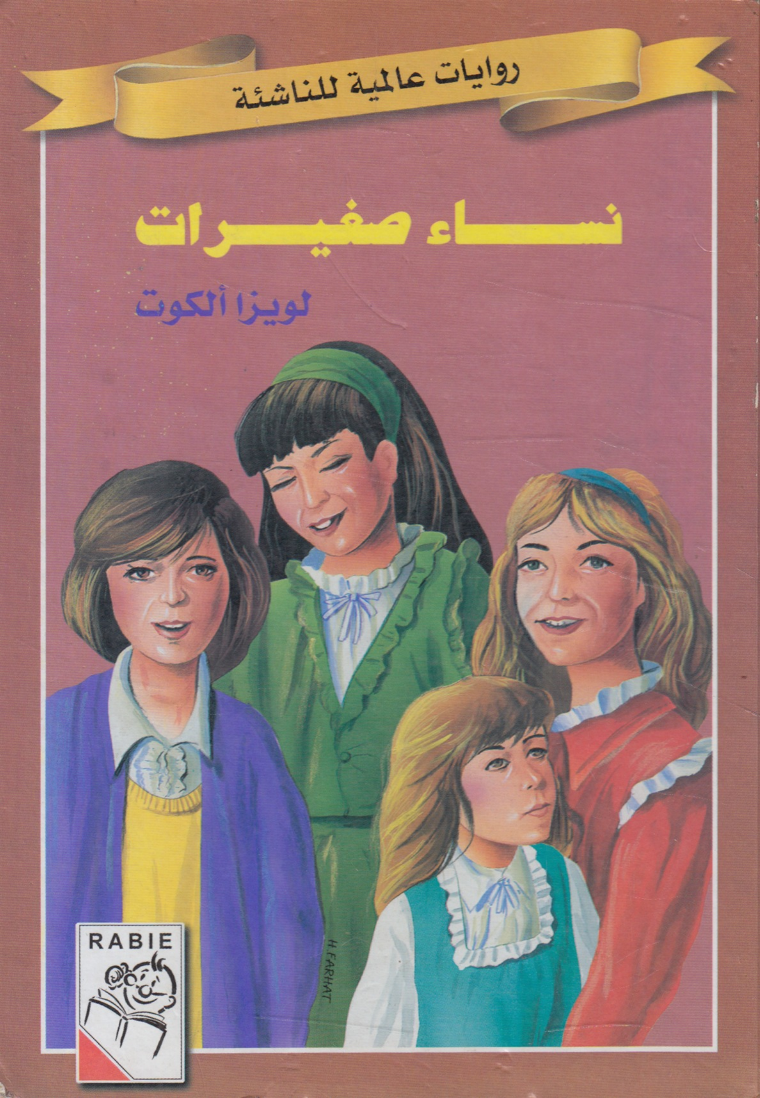

روايات عالمية للناشئة
نساء صغيرات
لويزا ألكوت
RABIE
H. FARHAT

روايات عالمية للناشئة

نساء صغيرات

نساء صغيرات

(لويزا ألكوت)

1832 –1888

ترجمة

د. محمد نديم خشفة

ذكرى حاج حسين

إشــــراف : محمـــد كمـــــال

إخراج فني : م. نشوان خريط



الفصل الأول

العائلة



قالت (جو) وهي مستلقية على البساط : لا معنى لعيد نويل بدون هدايا .

فقالت (ميغ) وهي تنظر إلى فستانها القديم : نعم لا يحس الإنسان بفقره إلا في عيد نويل .

وأيدت قولها الصغيرة (إيمي) : وذلك حين تقدم الهدايا إلى ناس ويحرم منها آخرون .

فقالت (بيث) العاقلة وهي تبتسم : يجب أن نفكر بالناس الأفقر منا ، وإن لم يكن بابا معنا .

قالت جو : وأخشى أن يظل بعيداً عنا مدة طويلة بسبب هذه الحرب اللعينة .

وتحسرت الفتيات الأربع وفكرت كل منهن : ونخشى ألا يعود أبداً .

ولكن يجب ألا يُعلنَّ هذا بصوت مرتفع ، ولا يذكرن الأخطار الناجمة عن هذه الحرب الأهلية بين شمال الولايات المتحدة وجنوبها ، الناشبة سنة 1861 ، وتدعى حرب الانفصال .

قالت ميغ البنت الكبرى : ترى ألا تفكر ماما بهدايا نويل ، وأن نتصدق بأموالنا على الفقراء ، هذا لا يمتعني أبداً .

وحين نطقت ميغ الحسناء بهذه العبارات تخيلت الملابس الجميلة التي تتمناها ، وبدأت أخواتها يتحدثن عما يشترينه بنقودهن التي وفرنها ، ولا تتجاوز دولاراً لكل واحدة منهن .

هتفت جو الطائشة : عن أي هدايا تتحدث أمي ؟ إنها أموالنا التي وفرناها طول السنة .

فقالت ميغ حزينة : هذا صحيح ، فقد شقيت في رعاية الأطفال المتعبين .

وقالت جو : وأنا هل يمتعني البقاء مع عمة شرسة متقلبة المزاج ؟ أكاد أرمي بنفسي من النافذة أحياناً .

وتحسرت بيث : أنت تخرجين على الأقل ، أما أنا فأظل هنا أغسل الأطباق التي يستعملها ستة أشخاص ثلاث مرات يومياً ، وقد أفسد الماء أصابعي ، حتى لا أكاد أجرؤ على العزف على البيانو .

وقالت إيمي الصغيرة : والحاصل أنه لا أحد يلهو معي ! حين أذهب إلى المدرسة أشعر بالقهر ، لأن رفيقاتي يهزأن من فقر أبي ومن ملابسي ومن أنفي البشع ، أنا أعلم أن أنفي بشع ولكن هذا ليس ذنبي !

قالت ميغ : صدقت يا صغيرتي إيمي ، والأمر يكون مختلفاً لو لم يفقد والدنا ثروته .

– لقد قلت لنا في المرة السابقة ، إننا أسعد من عائلة (كينغ) الذين لا يتوقفون عن الشجار ، ويبذرون الأموال .

– صدقت يا بيث ، وما زلت أقوله ، فنحن نعيش متفاهمات ولا يزعجنا سوى العمل .

وحين سمعت جو هذه العبارة نهضت ، وبدأت تتمشى في الغرفة جيئة وذهاباً وهي تصفّر ، فقالت إيمي :

– أترينها ؟ ! لقد بدأت تصفّر الآن كالصبيان .

فقالت جو : لا علاقة لك بهذا .

فأجابتها الصغيرة إيمي بافتخار : لا أحب البنات السيئات التربية .

فقالت جو : وأنا لا أحب البنات المغرورات .

وما كادت بيث تتدخل لتصلح بينهما حتى قالت ميغ البنت الكبرى ، ولم يكن عمرها سوى ست عشرة سنة ولكنها تتكلم كالكبار :

– كلتاكما على خطأ ، أنت يا جوزفين حان الوقت لكي تتخلي عن تشبهك بالصبيان ، تسريحة شعرك أقرب إلى تسريحة المرأة ، ولم يعد لك جدائل .

فقالت جو وهي تجذب شعرها : إذا كانت المسألة تتعلق بالتسريحة فأفضل لي أن أعود إلى جدائلي حتى سن العشرين ، فأنا لا أحب أن أمشي كالقصبة اليابسة أو يناديني الناس : يا آنسة مارش ، ألا يكفيني أن أكون فتاة ؟ كم تمنيت لو كنت صبياً لحاربت إلى جانب أبي ، ولكني جالسة هنا أحيك الصوف مثل امرأة عجوز .

ونظرت إلى جوارب الصوف التي تحيكها وسوف ترسل إلى الجنود في الجبهة .

قالت ميغ : افرحي لأنك استطعت أن تسمي نفسك جو ، وهذا اسم صبي ، وأما أنت فلا بأس أن تترفعي عن الألفاظ المبتذلة ، ولكن إذا داومت على استعمال المفردات القديمة فسوف يضحك عليك الناس .

فضحكت بيث وحاولت إصلاح الحال : إذا كانت إيمي مغرورة وجو مثل صبي فماذا عني أنا ؟

فعانقتها ميغ وقالت : أنت الحبيبة إلى قلبي .

ولم يعترض على قولها أحد .

انصرفت البنات إلى العمل ، على حين كان الثلج يتساقط غزيراً في الخارج ، وكانت الحجرة دافئة أليفة على الرغم من أثاثها المتواضع ، فيها مكتبة عامرة بالكتب والمجلات ، وعلى نوافذها ستائر نظيفة وأمامها مزهريتان وضعت فيهما الزهور بمناسبة عيد نويل .

كانت كبرى البنات تدعى (مرغريت) عمرها ست عشرة سنة ، بالغة الجمال ، شعرها الكستنائي يترامى على كتفيها وشفتاها مرسومتان بعناية ، وهي فخورة بيديها الدقيقتين البيضاوين ، وأختها (جوزفين) وعمرها خمس عشرة سنة ، فهي تشبه أختها ولكن بينهما اختلافاً في الهيئة ، إنها طويلة القامة عصبية المزاج وشعرها قاتم اللون ، وكأنها مُهرة منطلقة في المروج بساقيها وذراعيها الطويلة التي لا تعرف كيف تتصرف بها ، وكتفاها عريضان ويداها كبيرتان وكأنها صبي يتحول إلى فتاة ، وكان هذا يؤلمها كثيراً ، وأما جمالها الحقيقي فهو شعرها الذي تتركه ينسدل على هواه .

والأخت الثالثة رقيقة الطباع ووجهها متورد وشعرها منسدل كالحرير فاتح اللون .

وأما إيمي الصغيرة فهي أهم شخصية في العائلة ، وهذا رأيها طبعاً ، شقراء مجعدة الشعر كالحمل الصغير ، هشة كأنها دمية من الخزف ، وتتصرف في الحياة بكبرياء تظنها ضرورية لفتاة حسنة التربية ، ولكنها قد تكون مشاغبة أحياناً .

كانت الساعة السادسة مساءً ، نهضت بيث وكنست الرماد المتناثر أمام المدفأة ، فلن تلبث الأم أن تعود ، مما أفرح البنات ، وأدارت ميغ فتيل المصباح فازدادت الغرفة نوراً . ونسيت جو تعبها ونظرت إلى الخف الذي ستلبسه أمها ، وقالت : لقد تمزق ، سأقدم لها خفاً جديداً .

فقالت بيث وقد احمر وجهها : هذا ما فكرت أن أفعله بدولاري الوحيد .

وصرخت إيمي متوفزة : لا ، أنا سأشتري لها .. أنا سأشتري لها .

فقالت ميغ : عفواً .. أنا الكبرى بينكن .



فردت جو : قد تكونين الكبرى ، ولكن أبي طلب مني قبل سفره رعاية أمي أثناء غيابه ، وأنا التي سأشتري لها الخف ولا أحد سواي .

قالت بيث : اسمعي ، لا تتجادلن حول أفضلية الواحدة على الأخرى ، الأمر يتعلق بماما لا بنا ، فلنشتر لها كل واحدة منا هدية بدل أن تشتريها لنفسها .

قالت جو وقد هدأت : فكرة رائعة يا بيث ! وماذا نقدم لها ما عدا الخف ؟

– زوجاً من القفازات .

قالت ميغ هذا ونظرت إلى يديها .

وأضافت جو : سأقدم لها حذاء عسكرياً ، إنه متين .

فسخرت منها إيمي قائلة : حذاء العسكر ملائم تماماً للمرأة الأنيقة ! سأشتري لها زجاجة كولونيا ، فهي ليست غالية ، وربما بقي معي بعض القروش أشتري بها شيئاً آخر .

– سأقدم لها مناديل معطرة .

– وكيف نفعل لكي نقدم لها كل هذه الهدايا ؟

فقلبت بيث قطعة الخبز التي تسخنها على الموقد وقالت :

– إني أخاف من أعياد الميلاد ، ولا أحب أن يحتفل بي أحد أثناءها .

حينئذٍ وضعت جو يديها في جيبها ، وبدأت تتمشى في الغرفة بخطوات واسعة وقالت : أرى أن تشتري كل واحدة منا الهدية كأنما هي لها ، ثم نفاجئ ماما بأن نقدمها إليها . غداً بعد الظهر آخر موعد للشراء ، ولا ننسى أننا سنقدم المسرحية ولم نتقنها بعد !

قالت ميغ : هذه آخر مرة أُمثل فيها ، لأني كبرت على هذا النوع من التسلية .

قالت جو : ولكنك أفضل ممثلة لدينا ، وكم تكونين جميلة بثوبك الأبيض والتاج على رأسك ، والحلي تبرق في صدرك ! وأنت يا إيمي أعيدي المشهد الذي تسقطين فيه مغمى عليك ، فأنت تسقطين كأنك آس الدينار !

قالت إيمي : طبعاً ، لأنه لم يغم عليَّ في حياتي ولم أر احداً يغمى عليه ولا أريد أن أوذي نفسي ، والأفضل أن أرتمي على الكرسي لأن (هيغو) حين يهددني بمسدسه لا أشعر بالخوف فعلاً .

لقد أسند هذا الدور إلى إيمي لأنها غير موهوبة في التمثيل ، ولأن الخاطف هيغو يستطيع حملها بسهولة وهي تصرخ بين يديه .

فقالت جو بصبر : اسمعي يا إيمي ، ما عليك سوى أن تمدي ذراعيك أمامك ، وأنت تصرخين : (النجدة .. رودريكو .. النجدة) .

فحاولت إيمي أن تعمل بنصيحة أختها ، فمدت ذراعيها كأنها تحمل كرسياً لا تطلب النجدة ، وصرخت فكان صوتها الثاقب صوت فتاة صغيرة شكها دبوس .

وكادت جو أن تنتف شعرها ، وضحكت ميغ حتى طفرت الدموع من عينيها ، وغفلت بيث عن الخبز فاحترق فوق المدفأة ، فقالت جو : حسناً .. ابذلي جهدك ، ولكن إذا ضحك المتفرجون بدل أن يبكوا فالذنب ذنبك ولست مسؤولة عنك .. الآن دورك يا ميغ .

وأعادت كل فتاة دورها في المسرحية ، وكانت الأمور على أحسن ما يرام ، وقد حفظت كل فتاة النص المسرحي بإتقان ، وكانت جو أكثرهن إتقاناً .

فقالت بيث وهي صادقة في قولها :

– أنت رائعة يا جو ، فأين تعلمت كل هذه الحركات المسرحية ؟ إنك فصيحة كشكسبير .

فأجابت جو بتواضع :

– أظن أن المسرحية ذاتها (لعنة الساحرة) رائعة ، وهي تساعد على التمثيل ، وكنت أستطيع أن أخرج هذه المسرحية إخراجاً رائعاً لو كان لدينا حفرة في الأرضية ، فهي ضرورية لظهور الأشباح .

– العائلة كما أرى في حالة احتفال .. ما أسعدني ..

كان ذلك صوت الأم الواقفة بالباب ، فاستقبلتها البنات بصرخات الفرحة ، ولمعت عيناها الرماديتان بنور البهجة وإن كانت ملابسها متواضعة ، لكن البنات تراها المرأة الأكثر أناقة في الدنيا .

وسألت : كيف كان هذا اليوم ؟ لم أستطع المجيء للغداء ، عندي أشغال كثيرة ، كيف حال زكامك يا ميغ ؟ وأنت يا جو تبدين متعبة .

قالت السيدة مارش هذا وهي تنزع معطفها المبلل وتخلع حذاءها الملطخ بالوحل وتلبس الخف .

وجلست بجانب المدفأة وإيمي في حجرها ، على حين حملت ميغ صينية الشاي ، وجاءت جو بالحطب للمدفأة ، وبيث تجري كالفأرة

بين المطبخ والقاعة ، وأما إيمي المستقرة في حجر أمها فكانت تعطي الأوامر للجميع .

وعلت وجه السيدة مارش ابتسامة لا تظهر عليها دائماً ، وقالت أخيراً وقد وضعت فنجان الشاي : لدي لكنَّ مفاجأة ، ولكن أتركها لما بعد شرب الشاي .

فقالت جو وقد رمت المنشفة في الهواء : أعرف .. رسالة من بابا . فقالت السيدة مارش : تماماً ، لا شيء يخفى عليك ، رسالة مطولة يقول فيها إن كل شيء على ما يرام ، وإنه يقضي الشتاء أفضل مما نقضيه نحن ، ويتمنى لكنَّ أطيب الأمنيات بمناسبة عيد نويل .

وهتفت جو وهي تبتلع فنجان الشاي : لننته في الحال ، إيمي لا ترفعي إصبعك الصغيرة وأنت تشربين الشاي ، هذا يثير أعصابي .

قالت ميغ : إنه لأمر رائع أن يتطوع في الجيش .

وزايدت عليها جو قائلة : لو تطوعت معه لكنت قارعة على الطبل أو ممرضة . وقالت إيمي : بابا المسكين ينام في الخيمة ويشرب في طاس من التوتياء .

وسألت بيث : متى يعود يا ماما ؟

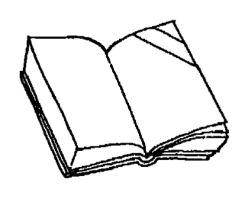
– لن يعود قبل شهور ، إلا إذا أصابه المرض ، سأقرأ الرسالة الآن . والتفت البنات حول أمهن ، واختبأت جو وراء أختها حتى تبكي ولا يرى أحد دموعها ، ولم يتحدث الأب كثيراً عن نفسه ولا عن الحرب ، وإنما تمنى لهن عيداً سعيداً وأوصاهن بالعمل الجاد حتى إذا عاد من الحروب الأهلية بين شمال البلاد وجنوبها وجدهن " نساء صغيرات " .

وما إن انتهت الأم من قراءة الرسالة حتى ارتفعت أصواتهن بالبكاء بما فيهن جو (رجل العائلة) . وتأثرت السيدة مارش بالرسالة فحيّت البنات تحية المساء وقالت لهن إنهن سيجدن غداً تحت المخدة ما يحتجن من مال .

أثناء ذلك كانت (حنة) العجوز قد نظفت المدفأة ، ومضت السيدة مارش إلى النوم ، وانصرفت البنات إلى أشغال الإبرة والتطريز بجد ونشاط حتى التاسعة مساءً ، حينها جلست بيث إلى البيانو ، فعزفت عليه ألحاناً شجية ، ورافقتها ميغ على المزمار ، وغنت معهما جو وإيمي ، فكلهن يحببن الغناء كما تفعل أمهن التي يتردد صوتها في أرجاء البيت كأنه صوت العندليب .

الفصل الثاني

عيد نويل غير عادي



من نهار الغد استيقظت جو قبل أخواتها فجر العيد .

لم تجد جورباً معلقاً على المدفأة ولا حذاء تملؤه الألعاب والحلوى كما كانت تراه في طفولتها ، وقد بحثت جو تحت مخدتها كما نبهتها الأم ، فوجدت تحتها كتاباً صغيراً مُغلفاً باللون الأحمر .. إنه الكتاب المقدس ، وقد فرحت به جو وأيقظت ميغ التي ما تزال ناعسة وقالت لها : عيد سعيد .

وطلبت منها أن تبحث تحت مخدتها ، فوجدت ميغ الكتاب الصغير نفسه ولكنه مغلف بالأخضر .

واستيقظت بيث وإيمي في تلك اللحظة فوجدت الأولى كتاباً صغيراً مغلفاً بالأزرق ، والثانية كتاباً مغلفاً بالبنفسجي .

وجلسن في الفراش يقرأن الكتاب المقدس والسماء قد تحول لونها إلى الوردي لإشراق الشمس ، ثم نزلن جميعاً إلى المطبخ حيث

العجوز حنة ، وتغنين لها بصوت واحد : عيداً سعيداً ، وسألنها عن الأم ، فقالت العجوز : عيداً سعيداً يا بناتي ، لا أدري أين هي ، والله يعلم أين ذهبت ، لأن سائلة فقيرة مرت هذا الصباح الباكر ومضت أمكنُ معها ، إنها امرأة طيبة تتصدق حتى بقميصها .

وحنة العجوز قد دخلت في خدمة عائلة مارش منذ ميلاد ميغ والجميع يعدونها من العائلة لا مجرد خادمة .

فاقترحت عليهن ميغ أن يرتبن البيت في انتظار أمهن ، وأخرجت السلة التي وضعن فيها الهدايا منذ ليلة البارحة ، وسألت :

– أين زجاجة الكولونيا التي اشترتها إيمي ؟ .

فقالت جو : لقد أخذتها لتربط حولها شريطاً ملوناً .

ـ هل رأيت مناديلي المطرزة ؟ لقد كوتها حنة وكتبت عليها أول حرفين من اسمي .

وسألتها جو : ولماذا كتبت كلمة (أمي) عليها ؟

– حتى لا تختلط مناديلها بمناديلنا .

وصرخت جو : خبئي السلة ، لقد سمعت الباب الخارجي يفتح ، إنها أمي ..

ولكنها لم تكن الأم بل إيمي الصغيرة ، فقالت لها ميغ : غريب ، أنت الكسولة تستيقظين هذا الصباح الباكر ؟ أين ذهبت ؟ وماذا تخبئين وراء ظهرك ؟

فأطرقت برأسها وقالت : ذهبت إلى البائع وأبدلت زجاجة الكولونيا الصغيرة بأخرى أكبر منها لأني وجدتها لا تليق تماما ، والآن لم يبق معي شيء من النقود .

فحضنتها ميغ بين ذراعيها وقبلتها ، وجرت بيث إلى الحديقة وقطفت وردة زينت بها زجاجة الكولونيا .

جاءت الأم هذه المرة ، فسارعت البنات إلى إخفاء السلة تحت السرير ، وجلس الجميع أمام الطاولة .

وحين دخلت الغرفة ارتمين عليها يعانقنها ويتمنين لها عيداً سعيداً ، وشكرنها على الكتب ، فقالت : عيداً سعيداً يا بنات ، وأريد أن أقول لكنَّ إنه ليس بعيداً عن بيتنا توجد امرأة فقيرة ، وقد ولدت منذ أيام ، وزوجها في الحرب ، ولديها ستة أطفال ينامون في فراش واحد لئلا يموتوا من البرد ، وقد جاء ابنها الكبير يطلب شيئاً من الخبز ليأكلوا هذا الصباح ، فهل نقدم إليهم هدية العيد ؟ ولتكن فطور هذا الصباح .

وتبادلت البنات النظرات ، فقد كنَّ جائعات وينتظرن رجوع الأم ، ثم قالت جو : لحسن الحظ أننا لم نبدأ الأكل بعد .

وقالت بيث : هل أحمل إليهم الطعام يا أمي ؟

وأضافت إيمي : سآخذ إليهم الفطائر والقشدة . وذلك على الرغم من أن الفطائر والقشدة أحب شيء إلى قلب إيمي .



قالت السيدة مارش :

– لقد كنت واثقة من كرمكن ، سنذهب كلنا إليهم ، وحين نعود نأكل الخبز الساخن مع الحليب .

مشين فوق الثلج والبرد شديد ، ودخلن حارات مظلمة مملوءة بالطين حتى وصلن بيتاً تكسرت نوافذه وعوضت بقطع الكرتون ، وأما داخل البيت فكان بارداً لا نار

فيه ، والأطفال الستة يرتعدون من البرد في أسمال بالية ، والأم تسعل وهي تهدهد صغيرها .

وهتفت المرأة :

– يا رب ! لقد أرسلتكن العناية الإلهية !

ومزحت جو معها قائلة :

– نعم ، ولكن لبسنا أحذية مطاطية لئلا تبتل أقدامنا .

أثناء ذلك كانت حنة العجوز قد حملت بعض الحطب ورمته في المدفأة وأشعلته ، فانتشر بعض الدفء في الغرفة البائسة .

وسخنت السيدة مارش بعض الشاي والزهورات لتشربه هذه الأم النُفساء المتعبة ، ووعدتها ببعض الثياب لطفلها الرضيع ، وهي ثياب البنات حين كنّ صغيرات .

واهتمت البنات الأربع بالأولاد ، وجعلن يطعمنهم بأيديهن ، فكان صباح عيد بهيج لم تعرف البنات أروع منه ، على الرغم من أنهن لم يذقن لقمة واحدة .

ورجعن إلى البيت ، وحينما ذهبت الأم لتفتح الحقيبة وترتب بعض الثياب لابن المرأة الفقيرة ، سارعت البنات الجائعات وأفرغن

على الطاولة الهدايا التي اشترينها للأم ، ولم تكن هدايا غالية الثمن ولكنها عامرة بالحب والتقدير .

كانت جو ترقب الباب منتظرة عودة أمها ، وهتفت لهن :

– لقد جاءت ، اجلسي يا بيث على البيانو .. وافتحي لها الباب يا إيمي .. انتباه ..

وصرخت البنات جميعاً :

– عيداً سعيداً يا أمي !

وعزفت بيث على البيانو ، وفتحت إيمي الباب ، ومشت جو وميغ وراء الأم كأنها زفة العروس حتى الطاولة .

اغرورقت عينا الأم بالدموع ، وهي تقرأ الكلمات المكتوبة على كل هدية .

ولبست الخف ضاحكة ، و هو خف عسكري ، ووضعت في جيبها أحد المناديل بعد أن ضمختته بماء الكولونيا ، وشكلت الوردة إلى صدرها ، وكان القفازان ملائمين ليديها .

ولا تسل عن الفرحة التي غمرت هذه العائلة وهي تحتفل بصباح هذا العيد ، ثم انصرفن إلى التدريب على المسرحية التي ستمثل هذا المساء ، وهي عمل هام من إخراج جو ولابد أن يكتب لها النجاح .

وكان لابد من تحضير الملابس ولوازم المسرحية ، ولم يكن لديهن المال ، ولكنْ للضرورة أحكام ، إذ عمدت البنات إلى بعض الثياب القديمة فحوَّلنها إلى ثياب تلائم المسرحية وصنعن السيوف ومعدات الحرب من الكرتون وصبغنها باللون المناسب ، فتحولت القاعة إلى فوضى كاملة من أوراق متناثرة وقطع قماش مرمية ، ولكن السيدة مارش لم تهتم بهذه الفوضى .. إنها مسرحية العيد .

ولم يكن لِيُسمح لأي رجل بالاشتراك في المسرحية لذلك أخذت جو دور الفارس فيها ، واستعارت حذاء عسكرياً من أحد الجيران .

واضطرت كل واحدة منهن إلى القيام بأكثر من دور ، لأن عدد الشخصيات أكثر من أربع ، وبذلت البنات الكبريات جهداً جباراً لتحفظ دورين بآن واحد ، ثم تسارع كل واحدة إلى تغيير ملابسها والدخول في الشخصية الثانية .

ووجدت السيدة مارش في هذه المسرحية تمريناً رائعاً لبناتها على الاستظهار وتدريب الذاكرة ، فكانت تمدّ لهن كل عون ممكن لأنهن يشغلن وقتهن بأمور مفيدة .

هذا المساء ، اجتمعت حوالي خمس عشرة فتاة في القاعة وتوزعن على المقاعد والأسرّة ليشهدن المسرحية .

وكنَّ يُطالبن برفع الستار ، وهو عبارة عن قماش قديم لإحدى الستائر البالية ، ثم قُرع الجرس إيذاناً برفع الستار وبدء المسرحية ، ولم يكن الديكور سوى لوحات مكتوب عليها مكان الحدث وزمانه .

" الحدث في غابة معتمة "

وتجد على الأرض بعض المزهريات والقماش الأخضر تمثل الغابة ، وأما المغارة فكان ديكورها من الكراسي المقلوبة وبعض الملابس المنشورة وموقد تشتعل فيه النار . وقد انحنت عليه امرأة عجوز تمثل الساحرة ، وكان موقداً حقيقياً تحترق فيه بضع جذوع من الشجر الصلب ، وحين ترفع الساحرة غطاءه ينعكس اللهيب على وجهها فيعطي الانطباع بمغارة مظلمة .

وتأمل المتفرجون هذا المشهد مدة من الزمن ثم دخل " إيغو " بخطوات واسعة بحذائه الأصفر وقميصه المخملي وقبعته العجيبة ولحيته السوداء ، ويده على مقبض سيفه الصدئ .

وتجول في طول القاعة وعرضها وهو يضرب جبينه بيده ويشرح لمن لا يعلم أنه يُكنُّ حقداً لرودريك وحباً عنيفاً لزارا ، وقد عزم على قتل الأول وتزوج الثانية ، وكان إيغو يطلق صرخات وحشية ، ويحدق بعينين يتطاير منهما الشرر .

وأعجب المتفرجون بهذا المشهد وصفقوا له طويلاً ، فالمحنى لهم هذا الخائن ، واسترد أنفاسه ، ثم توجه إلى مدخل المغارة حيث الساحرة المخيفة تحضر شرابها السحري وصرخ بها :

– " هانمار .. أيتها اللطيفة ، إني محتاج إليك .. " .

ونهضت الساحرة هانمار . بما قدرت عليه ميغ من تمثيل وهي مرتدية أسمالاً بالية ، وفوقها رداء طويل أسود ارتسمت عليه علامات السحرة ورموزهم ، وقالت :

– ماذا تريد أيها الفارس الجميل ؟ .

فطلب منها جرعة من شرابها السحري لكي تعشقه زارا ، ويختفي رودريك في مكان بلا رجعة .

حينئذٍ عزفت موسيقا البيانو من غرفة الطعام ، ودخل طيف مُجنّح فرمى للخائن بزجاجة من الشراب السحري .

ثم غنت الساحرة لحناً استغرق عدة دقائق لكي تتيح للطّيف أن يبدل ثيابه .

انحنى الخائن على الأرض والتقط الزجاجة السحرية وأخفاها في حذائه ، وحين غادر المكان كان يمشي بطريقة غريبة .

ثم توجهت الساحرة إلى المتفرجين وأعلنت لهم أن إيغو كان قد قتل عدداً من صديقاتها ، ولذلك قررت أن تنتقم منه وتفسد عليه خططه كلها .

وأسدل الستار على هذا المشهد ، وتناقش الحاضرون فيما سيكون عليه انتقام الساحرة وهم يأكلون الحلوى والبسكويت .

وحين رفع الستار عن المشهد الثاني هلل المتفرجون إعجاباً بالديكور ، إذ كان قلعة كبيرة في أعلاها نافذة يضيئها مصباح ، ووراء ستار النافذة زارا تنتظر رودريك في فستان أزرق جميل .

ودخل رودريك بعد قليل وعلى رأسه قبعة فيها ريشة وصاحَبَ دخولَه عزف البيانو .

وتحادثت زارا معه وقررت الهرب من القلعة ، وكان هذا المشهد هاماً لأن زارا ستهرب على حبل رماه إليها .

أمسكت الفتاة بالحبل وربطته بالقلعة ونزلت عليه بهدوء وخفة ، وقبل أن تصل إلى الأرض كان شالها قد علق بالقلعة فما إن وطئت قدماها الأرض حتى انهارت القلعة كلها على رأسَي العاشقين .

وظن الجمهور أن هذا جزء من المسرحية فصفق طويلاً ، ولكن رودريك كان يضرب بقدمه قطع القلعة المنهارة ويقول :

– قلت لك إنها ستنهار !

ولحسن الحظ أنْ دخل هذه اللحظة والد زارا القاسي القلب ، وجذب ابنته من يدها وهو يقول :

– لا تضحكي ، وتظاهري بأن الأمور على ما يرام !

ثم جاء المشهد الذي يأمر فيه أبوها رودريك بمغادرة المملكة ، وألا يعود إليها أبداً . ولكن البطل الشجاع يرفض ، فيأمر الأب بأن توضع القيود في قدميه وقدمي زارا ويرميا في الحبس ، فيدخل جلاد ينفذ ما أمر به ، ولكنه لأمرٍ ما لا يقول شيئاً ولعله نسي الحوار .

أما الفصل الثالث فيجري في قاعة القصر الكبرى حيث تدخل هانمار الساحرة العجوز لتنقذ العاشقين وتصفي حسابالها مع الخائن إيغو وتختفي وراء الستارة حين يدخل ، فماذا يفعل ؟ إنه يفرغ زجاجة الشراب السحري في كأسين ويطلب من الخادم أن يحملهما إلى الأسيرين ، ويفعل الخادم ما يؤمر به ، ولكنه يبدل مكان الكأسين . وبعد خطاب مطول يلقيه الخائن أمام المتفرجين يصيبه العطش فيتناول الكأس ويشربه ، ويحس باحتراق في معدته فيتلوى على الأرض وهو يصرخ من الألم ، وتظهر حينئذٍ الساحرة فرحة وقد أنجزت وعيدها ويموت الخائن ويصفق الجمهور .

أما الفصل الرابع فيدور حول يأس رودريك الذي ظن أن زارا قد خانته ، ولكن أغنية تلقيها الجوقة تحت نافذة رودريك تؤكد له أنها وفية صادقة .

ونسمع صوت مفتاح يُرمى فنعلم أنه قد هرب من سجنه بأعجوبة .

ويبدأ الفصل الخامس بمشهد مريع ، حيث الأب يسعى إلى إرسال ابنته زارا إلى الدير ، فيدخل رودريك بخطوات واثقة ويطلب يدها ، فيرفض الأب طبعاً وهو يصرخ صراخاً مزعجاً ، وحينئذٍ يدخل الخادم الخجول ومعه رسالة من هاغار ، ونعرف أنها قد أورثت رودريك ثروة هائلة ، وهددت الأب دون بدرو بالموت إذا لم يترك ابنته زارا وشأنها ، ويسدل الستار على الأب وهو يبارك زواج العروسين .

وتعالت أصوات التصفيق ، وفجأة انهار السرير بمن فيه ، وسقط نصف المتفرجين على الأرض .

وسارع رودريك ودون بدرو إلى مساعدة المدعوين الذين تكدس بعضهم فوق بعض .

حينئذٍ فتحت حنة العجوز الباب وأعلنت أن المائدة جاهزة ، وكانت تلك مفاجأة حتى للممثلين أنفسهم .

إذ كان على الطاولة قطعتان كبيرتان من الحلوى وأنواع كثيرة من المأكولات ومزهريتان رائعتان .

تبادلت البنات نظرات الدهشة ، وقالت إيمي : إنهن الحوريات .

قالت بيث : بل هو بابا نويل .

وقالت ميغ : لا .. إنها ماما .. من أين جاءت بالنقود ؟

وقالت جو : لا ريب أنها العمة مارش التي تكرمت علينا هذه المرة .

فدخلت الأم وقالت : إنه السيد لورنس .

ودهشت البنات وقلن بصوت واحد : جد الصغير لورنس ! .. ولكننا لا نعرفه .

قالت الأم : إنه صديق والدي ، وقد أراد أن يهدينا شيئاً بمناسبة العيد .

قالت جو : ولكني أعرف حفيده ، إنه شاب لطيف ، وقد تحدثت معه مرة لأتعرف عليه ولكن ميغ منعتني من ذلك .

فقالت السيدة مارش : أظنه شاباً لطيفاً ولا مانع من محادثته ، وهو الذي جلب الزهور ، ولم أدْعُه إلى الدخول لأن الحفلة خاصة بالأوانس .

وقالت بيث : هل نستطيع إرسال الزهور إلى بابا بمناسبة العيد ؟

الفصل الثالث

حفيد السيد لورنس



نادت ميغ وهي تبحث من غرفة إلى غرفة : جو أين أنت ؟

فأجابتها بصوت مرتفع : في السقيفة .

وصعدت السلم لتجد أختها تذرف الدموع على كتاب تقرؤه بسرعة وهي تقضم تفاحة ، كانت السقيفة ملجأها المفضل حيث تأخذ كتاباً وتفاحات ، ومعها صديق عزيز عليها هو سنجاب طويل الذيل يأكل معها بقايا تفاحاتها ، واسمه " راتون " ، وتعلق راتون بعمود حين رأى ميغ ، فكفكفت جو دموعها ونظرت إلى أختها متسائلة .

فقالت لها : انظري ، لقد أرسلت إلينا السيدة غاردينيه بطاقة دعوة .

فتناولت منها البطاقة وقرأت : تتشرف السيدة غاردينيه بدعوة الآنستين مرغريت وجوزفين إلى السهرة الراقصة التي تقام في بيتها مساء 31 كانون الأول " .

وقالت لها ميغ : تطلب منا ماما أن نذهب ، ولكن أي فستان نلبس ؟

فقالت لها جو متفلسفة : يا له من سؤال ! وهل عندنا سوى فستان يتيم ؟

– يا رب ! كم أتمنى لو يكون عندي ثوب حريري ، ولكن وعدتني أمي بشراء واحد حين أبلغ الثامنة عشرة ، وعلي الانتظار سنتين .

قالت جو : إن فستانك البوبلين جديد تقريباً ، وأما فستاني فهو ممزق وفيه حروق لا يمكن إخفاؤها .

– سأضع شريطاً في شعري وأطلب من أمي إعارتي دبوسها ذا اللؤلؤة ، وأما حذائي فهو جديد وقفازي لا بأس به .

– أما أنا فإن قفازي ملوث باللون الأصفر ولن ألبسه .

فقالت لها ميغ التي تحب التدقيق في ملابسها :

– القفاز ضروري ولا يمكن الاستغناء عنه .

– في هذه الحالة سأبقى في البيت .

– ولكن لا بد من ذهابك .

– في هذه الحالة سأمسك قفازي بيدي ولا ألبسه ، ولن ينتبه أحد إليّ . وهناك حل آخر هو أن تمسك كل واحدة منا بفردة القفاز المثقوبة بيدها وتلبس الأخرى .

– لا .. أبداً . إن أصابعك أطول من أصابعي وسوف تمطّطي قفازي .

– إذن .. سأذهب دون قفاز .

وعادت إلى قراءة الكتاب وهي غاضبة .

قالت ميغ : سأعيرك واحداً ، ولكن على شرط ألا تلطخيه !

واحذري أن تضعي يدك وراء ظهرك وتتمشي كالصبيان .

– لا تخافي .. لا تخافي .. أعرف كيف أتصرف ، اذهبي الآن واكتبي الرد على الدعوة واتركيني أنهي هذا الكتاب .

وانصرفت ميغ للرد على الدعوة وخياطة ياقة دانتيل لفستانها ، على حين استمرت جو في القراءة وقضم التفاح .

ليلة رأس السنة كانت العائلة كلها مشغولة ، وكانت بيث وإيمي تساعدان أختهما في الاستعداد لحضور الحفلة .

أما جو فقد لفّت شعر أختها في لفّافات الشعر ، وبدأت تسخن حديد التجعيد لكي تخفف من انسداله على كتفيها .

وبعد دقائق فاحت في الغرفة رائحة لحم يحترق فقالت جو : أظن العجوز حنة قد أحرقت شيئاً .

فَجَرَتْ إيمي إلى المطبخ ، وعادت لتقول إنه لا أحد في المطبخ والموقد مطفأ ، ومرت عدة دقائق فازدادت قوة الرائحة ، وحين فكّت جو اللفافات عن شعر أختها ، التصق الشعر باللفافات واحترقت خصلة منه .

وصرخت ميغ : يا إلهي ! ماذا فعلتِ ؟ لقد شوهتِ شعري !

ورددت جو فزعة وانسكبت الدموع من عينيها :

– آه يا حبيبتي ! آسفة .. إني بلهاء ، ما كان عليك أن تطلبي مني تجعيد شعرك ، لقد سخنت الحديد أكثر مما يجب .

فتدخلت بيث كعادتها لتصلح الأمور :

– لا .. لا تخافي ، لم يفسد شيء ، ما عليك سوى أن تأخذي بعض الخصلات من الخلف وتربطيها بشريط .

ووافقتها إيمي : هذه آخر موضة ، رأيت الكثير من البنات يفعلن هذا .

وأخيراً اتّبعت ميغ نصيحة أختيها ، ثم اجتمعت العائلة كلها لتجعل جو مقبولة الشكل ، وتوصلن إلى نتيجة معقولة بعد جهدٍ جهيد .

وكانت ميغ رائعة في ثوبها الرمادي وياقتها المصنوعة من الدانتيل ، وأحست أن حذاءها ضيق ولكنها أخذت تبتسم لتخفي ألمها .

أما جو فثوبها زهري وله ياقة بيضاء عالية ، وحول خصرها حزام أبيض له وردة صغيرة .

ولم تنس ميغ أن تضع دبوس أمها ذا اللؤلؤة .

كانت الفتاتان جاهزتين لحضور الحفلة ، فقالت لهما أمهما تودعهما : استمتعا جيداً ، وارجعا قبل الحادية عشرة ، وستأتي حنة لتأخذكما معها .

وما إن مشت الفتاتان بضع خطوات حتى فتحت السيدة مارش الباب ونادت : هل أخذتما المناديل ؟

– نعم .. نعم يا ماما .

وقالت جو لأختها : أمي لا تنسى المناديل ولو زُلزلت الأرض !

فأجابتها ميغ : معها حق ، لأن المرأة الأنيقة تُعرف من منديلها وقفازها وحذائها .

قالت جو : إذا لاحظت أني أخالف العادات أثناء الحفلة فلا ترددي في تنبيهي .. غمزة عين تكفي .

– لا .. هذه حركة مبتذلة لا تليق بالمرأة المهذبة .

– حسناً اقرعي الباب .. لن نظل هنا حتى فصل الخريف .

– ولا تصافحي كل من رأيت ، ولا تمشي بخطوات واسعة .

قالت جو : لا تخافي سأنفذ أوامرك .

وانفتح الباب ودخلتا إلى بيت السيدة غاردينيه وهي امرأة أنيقة أحسنت استقبالهما ، ومدحت أناقتهما ، فشعرتا بالراحة وهدأت أعصابهما ، وطلبت من سالي إحدى بناتها أن ترافقهما .

وكانت ميغ تعرفها من قبل ، أما جو فكانت تخاف أن ينتبه أحد إلى ثوبها المحترَق ، فظلت لاصقة بالجدار متوفزة الأعصاب كأنها فيل في حديقة مزروعة بالورود .

في زاوية من القاعة ، كان بعض الفتيان يتحدثون عن الرياضة وأخبارها ، فهمّت جو أن تنضم إليهم ، ولكن قطبت ميغ حاجبيها

فتوقفت ، ولم يتكلم أحد معها ، فظلت تتفرج على الراقصين وقد أصابها السأم .

كانت ميغ ترقص كالفراشة على الرغم من حذائها الضيق ، وتقدم إلى جو فتى أحمر الشعر عريض الجبهة يسيل عرقه ، فتظاهرت بأنها لم تره واختبأت وراء ستار القاعة .

وفوجئت بشخص آخر خلف الستارة ، إنه حفيد السيد لورنس ، فقالت جو : آسفة ، لم أعرف أنك هنا .

فقال الفتى : أرجوك ، لا تذهبي ، هل يزعجك حضوري ؟

– لا .. أبداً ، لقد أردت ..

– أنا هنا لأني لا أعرف أحداً ، وأحس بالوحشة .

– مثلي إذن .

ولم يجبها ولكنه نظر إلى حذائه ثم تكلم أخيراً وقال :

– أظنني رأيتك من قبل ، هل أنت جارة لنا ؟

– تماماً ، نحن نسكن البيت المجاور .

وضحكت جو من خجله وعادت إليها بعض الثقة بنفسها وقالت : نشكرك على هدية عيد نويل .

– الشكر لجدي ، هو الذي أرسلها .

– أريد أن أسألك عن قطك ، كيف هو يا آنسة مارش ؟

– بصحة جيدة ، وأذكرك بأن اسمي جو .

– وأنا لوري .

فقالت ضاحكة : لوري لورنس .. رائع .

– اسمي الحقيقي تيودور ، ولكنه اسم قبيح يسخر منه أصحابي ففضلت أن أُدعى لوري .

– مثلي ، اسمي جوزفين ، ولكني أجبرت الجميع على مناداتي باسم جو .. هل تحب هذه الحفلات ؟

– بحسب الظروف ، إني عشت مدة طويلة في البلاد الأجنبية ولا أعرف كيف أتصرف في هذه الحفلات .

– إذن حدثني عن هذه البلاد الأجنبية .

وبدأ يروي لها تفاصيل رحلاته إلى سويسرا وإيطاليا وفرنسا بجبالها وسهولها ومدنها . وسألته : وهل زرت باريس ؟

– طبعاً ، قضينا الشتاء هناك .

– وهل تتكلم الفرنسية ؟

– طبعاً .

ثم التفت إلى حلقة الراقصين وقال : من تلك الفتاة ذات الحذاء الجميل ؟

ونظرت جو فإذا هو يشير إلى أختها ميغ فقالت : هذه أختي مرغريت .. إنها جميلة أليس كذلك ؟

– نعم وهي تشبه الألمانيات ، وترقص ببراعة .

وعزمت جو أن تنقل هذا المديح لأختها بعد قليل .

وتحادث الفتى مع جو وكأنهما صديقان من زمن طويل ، ونسيت حروق ثوبها ، وتساءلت عن عمره فإذا هو أكبر منها ، ويبدو وسيماً بشعره الأسود الأجعد . وسألته : أظنك ستذهب إلى الجامعة قريباً .

– ليس قبل عامين أو ثلاثة ، حين أبلغ السابعة عشرة .

وقالت مندهشة : عمرك خمس عشرة سنة ؟

– ست عشرة الشهر القادم .

– أتمنى أن أذهب إلى الجامعة ، ولكن لا يبدو عليك الاهتمام بها .

– لا .. لا أحب العيش هنا ، وأفضل الحياة في إيطاليا .

ولم تشأ أن تطلب منه إخبارها عن تفاصيل الحياة التي يفضلها في إيطاليا .

وسألته : ألا ترقص ؟

– أرقص معك إذا رغبت !

– ولكني لا أستطيع .

– ولماذا ؟

– إذا قلت لك ألا تسخر مني ؟

– أعدك !

– لأن ظهر فستاني محروق .

– لا يهم .. ولن يلحظه أحد .

ثم بدأا يرقصان ، وبعد قليل لمحت أختها تشير إليها للانفراد بها ، فذهبتا إلى قاعة جانبية وسألتها جو :

– ماذا حدث ؟

– لقد التوت قدمي بسبب الحذاء ولا أقدر على المشي ، فكيف سنذهب إلى البيت ؟

– كنت أعلم أن حذاءك سيؤذيك ، نحن أمام حلين : إما أن نستأجر عربة ، أو ننام هنا .

– أفضل انتظار حنة .

فقالت جو : عندي فكرة ، سأطلب من الفتى لورنس أن يأتينا بعربة .

– لا .. أفضّل انتظار حنة ، حان وقت العشاء ، اذهبي أنت وهاتي لي فنجان قهوة فقط إنني ميتة من التعب .

وانطلقت جو باحثة عن قاعة الطعام ، وأخذت تمر كالسهم من غرفة إلى غرفة حتى وجدتها ، فأخذت فنجان قهوة ، ومالبثت أن سكبته على فستانها ، فلم يعد صالحاً ، وكادت تنخرط في البكاء حينما سمعت صوتاً يقول لها : هل يمكنني مساعدتك ؟

إنه الفتى لورنس فقالت : سآخذ فنجاناً من القهوة إلى أختي فهي متعبة جداً ، ثم إن أحدهم دفعني فاندلقت القهوة على ثوبي وقفازي .

فقال لها : حسناً سأهتم بأختك .

دفع طاولة صغيرة إلى جانب ميغ ، ووضع عليها بعض المرطبات وكأس ماء وفنجان قهوة وبعض الحلويات . فانفرجت أسارير ميغ وشكرته ، وانتهت بأن قالت لأختها : إنه فتى لطيف .

وحين جاءت حنة ، نهضت ميغ وتوكأت على كتف أختها ولكنها لم تستطع الوقوف على قدمها ، وترقرقت الدموع في عينيها من الألم .

فتدخل الفتى لورنس وعرض عليهنّ الركوب في عربة جده .

فقالت جو : ولكن ما يزال الوقت باكراً ، ولعلك تريد البقاء !

فقال الفتى وهو يبتسم محرجاً : أفضل مغادرة الحفلات باكراً ، ثم إنه طريقي أيضاً ، والمطر يهطل في الخارج .

ركب لورنس بجانب السائق لكي يتيح لميغ أن تمد ساقها .

وقالت جو وهي تجلس بارتياح : هذا رائع .

فقالت ميغ : نعم .. حتى التوت قدمي فتبدلت الأمور ، وقد عرّفتني سالي على صديقة لها تدعى آني موفات ، ودعتني لقضاء أسبوع عندها في فصل الربيع ، وآمل أن تسمح لي أمي بالذهاب .

وصلت العربة إلى البيت ، فنزل لوري وفتح لهما بابها ورافقهما حتى باب البيت ثم ودعهما بأدب .

تسللت الفتاتان أملاً في أن لا يلفتا انتباه أحد في البيت ، ولكن سرعان ما خاب أملهما إذ رأتا شبحين في ثياب النوم ينتظران في الممر ، وقالت إحداهما : احكوا لنا كل شيء في الحال .

فأخرجت جو من جيبها بعض الحلوى التي جلبتها لهما فأخذتاها مسرورتين . وغضبت ميغ وقالت : هذا سوء تهذيب .

وقالت جو : على الرغم من شعرنا المحترق وفستاننا المثقوب وقفازنا الوسخ رقصنا وتمتعنا أحسن بكثير من أولئك السيدات .. هيا إلى النوم .

الفصل الرابع

ليست الحياة سعادة دائمة

استيقظت البنات كئيبات متعبات ،

وقالت ميغ لجو :

– ما أجمل الحياة حين لا يكون لدينا شيء نفعله ، سوى القراءة والتمثيل والذهاب إلى الحفلات .

فقالت جو :

– نعم ، إن العمة مارش ثقيلة الظل ، ولا يمكن تحملها طول النهار ، ولكني تعودت على طلباتها ولم أعد أغضب منها .

ولكن هذه الفكرة لم تخفف عن ميغ التي كان عليها رعاية أولاد عائلة كينغ الأربعة ، الذين لا يكفون عن المشاغبة وارتكاب الحماقات .

وأما بيث فكان رأسها يؤلمها ، وهي تلهو بالقطة وأولادها الثلاثة ، وإيمي قلقة لأنها لم تعثر على دفاترها ولم تحفظ دروسها ولم تجد حذاءها المطاطي ، وباختصار : كان الجو ثقيلاً وينقصه المرح .

وصرخت ميغ حينما قفز أحد القطط الصغيرة على ظهرها :

– بيث ، إذا لم تحبسي هذه الحيوانات في القبو أو السقيفة فسوف أرميها في النهر .

وانفجرت جو ضاحكة ، وبدأت بيث ترجو أختها ألا تؤذي قططها الصغيرة .

وبكت إيمي لأنها لم تستطع حل مسألة حسابية ، ونادت السيدة مارش من غرفتها :

– قليلاً من الهدوء يا بنات ، يجب أن أنهي هذه الرسالة .

بعد قليل أعدت حنة للفتاتين قطعتي كاتو لتأخذاها معهما لأن أمامهما نهاراً شاقاً من العمل ولن تعودا إلا بعد الغداء . وحين اجتازتا السياج لوحتا للأم بيديهما ، وكانت حركة الوداع هذه تزودهما بالشجاعة لاستقبال هذا النهار .

حينما تعرض الدكتور مارش للإفلاس اقترحت الفتاتان أن تقوما ببعض الأعمال التي تساعد الأسرة على مواجهة أعباء الحياة ، وقَبِل الأب لأنه يريد لهما أن تعتمدا على نفسهما ، ووجدت ميغ عملاً لدى أسرة كينغ الغنية ، حيث تعلم أولادها وتهتم بهم ، ولم يكن راتبها قليلاً ، وهي تصرف معظمه على حاجاتها .

وكانت تعاني أكثر من أخواتها لأنها عاشت حياة الرفاهية قبل إفلاس والدها ، ولاحظت أن أسرة كينغ تبذر أموالها على نزوات هؤلاء الأولاد الأربعة ، ولكنها تأكدت أن المال وحده لا يصنع السعادة .

وأما جو فكانت ترافق العمة مارش المقعدة وتقوم على رعايتها وتدبير شؤونها وقضاء حوائجها ، وحين أفلس ابن أخيها الدكتور مارش اقترحت عليه تبنّي إحدى بناته ، وشعرت بالإهانة حينما رفض طلبها هذا ، ونقل إليه بعض الأقارب أنها عزمت على حرمانه من الميراث .

فكان جوابه :

" لن أبيع إحدى بناتي بمال الدنيا كله ، وسواء كنا أغنياء أو فقراء سنبقى معاً ، ولن يمنعنا شيء من أن نكون سعداء " .

قاطعتهم العمة مارش زمناً طويلاً ، ثم التقت " بجو " في إحدى المناسبات ، فأعجبت بنشاطها ، واقترحت توظيفها لديها مدبرة لشؤونها ، وكم من مرة رفضت جو الذهاب إليها ، ولكنها تعطف عليها وتعود إلى تدبير منزلها لأسباب إنسانية ، وكانت جو تحب الذهاب إلى منزل العمة لأن لديها مكتبة عامرة بالكتب ، عشش فيها

العنكبوت ، وقد ورثتها عن زوجها ، وكان هذا الرجل الهرم قبل وفاته شديد العناية بجو ، يشرح لها كيفية استخدام القاموس ويجيب عن أسئلتها ويقدم لها الهدايا من شوكولا وحلوى .

والآن . فهي سيدة هذه المكتبة ، تقرأ فيها ما تشاء ، وتفعل ما يحلو لها حينما تكون عمتها نائمة أو تستقبل بعض الضيوف .

ولكن هذه السعادة لا تدوم ، فسرعان ما يعلو صوت العمة تنادي :

– جوزفين .. جوزفين .. أين أنت ؟

فتهرع إليها لتحضر لها الشاي أو تغسل كلبها أو تساعدها على لف الصوف . وكانت تحس بالإحباط لأنها تأمل أن تقوم بشيء خارج عن المألوف . ولعل هذه الحياة المتوحدة تساعد على ترويض مزاجها الجموح .

بيث لا تذهب إلى المدرسة ، وقد حاول أهلها دفعها إلى الدراسة دفعاً ، ولكنها خجولة ولا تتحمل نظرات رفاق المدرسة إليها ، وكانت ملجأ أخواتها في أزماتهن ، تخفف عنهن أعباء الحياة ، والتزم والدها بتعليمها في البيت ، وحين ذهب إلى الحرب استمرت في الدراسة وحدها ، وهي فتاة تحب البقاء في البيت وتساعد حنة

العجوز ، وتدور في البيت كالفأرة ، وقد صنعت لنفسها عالمها الخاص ، فكان لديها عشر دمى تغسلها وتطعمها وتعلمها وتلبسها كل يوم .

ولم تكن دماها جميلة ، بل هي مشوهة تكسرت بعض أعضائها أو رمتها أختها بعد أن كبرت ، وهذا ما زاد عطف بيث على دماها لأنها تحب رعاية المقعدين .



وكانت بيث تحب الموسيقا ، مشغوفة بها ، فهي تردد الألحان أثناء عملها ، أو تعزف على البيانو القديم ، ولا تمل مرافقة أمها في الغناء ، أو عزف المقطوعات لها حين تشاء .

وعلى الرغم من أنها تتعلم الموسيقا وحدها ، إلا أنها قد بدأت تتقنها وتبرع في العزف على البيانو .

وأما إيمي فلو سئلت عن أقبح شيء في الدنيا لقالت : إنه أنفها . وكانت جو قد أسقطتها أرضاً وهي صغيرة فكانت إيمي تحقد عليها ، وكم حاولت أن تضغط عليه بأصابعها لتحوله من أنف أفطس إلى أنف أشمّ يليق بفتاة أرستقراطية مثلها ! ولكن بلا جدوى .

ولإيمي موهبة في الرسم ، ويشكو أساتذتها من أنها تملأ دفاترها برسوم الحوريات والعفاريت بدلاً من تمارين الحساب أو القواعد ، وعلى الرغم من توفز أعصابها فإن لها صديقات كثيرات .

ذلك المساء قالت ميغ وقد استعدت للخياطة .

– لقد كان نهاري متعباً ، حدثوني حديثاً مسلياً فإني بحاجة إلى الضحك .

فقالت جو : طبعاً ، لقد تشاجرت مع العمة .

– وهل هذا شيء مضحك ؟

– انتظري بقية الحديث .. كانت العمة تقرأ في كتاب " الأدعية " الذي لا تمل منه حتى نامت ، وكنت أقرأ كتاباً مسلياً ، فارتفع ضحكي واستيقظت العمة غاضبة ، فاعتذرت لها ، ولكنها أصرت على أن أقرأ هذا المقطع الذي أضحكني ، وحين قرأته

انفجرت ضاحكة أيضاً . وطلبت مني إعادة القراءة من البداية ، وتخلت عن كتاب " الأدعية " العزيز عليها .

فضحك الجميع وقالت جو :

– سوف تتحسن الأمور لأنها تخلت عن كتاب " الأدعية " .

وحكت لهم ميغ مأساة حقيقية حدثت لدى عائلة كينغ :

– لقد سئم الأب من نزوات ابنه فطرده من البيت .

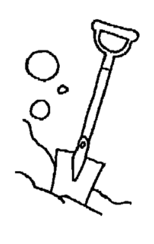
وروت لهم الأم كيف أنها التقت في السوق برجل هرم ذهب أولاده الأربعة إلى الحرب فاستشهد اثنان وأصيب الثالث بمرض عضال يعالجه في المشفى العسكري ، فقالت له :

– لقد قدمت الكثير إلى وطنك يا سيدي .

فقال : هذا واجبي ، ولو كنت قادراً لذهبت إلى الحرب بنفسي . وألقت هذه القصة حجاباً من الكآبة على العائلة وتذكروا أباهم الغائب .

الفصل الخامس

حُسْن الجوار



كان الثلج قد تساقط غزيراً ، ووقفت جو بحذائها المطاطي ومعطفها السميك وبيدها مجرفة ، فسألتها ميغ وهي تحكم الشال حول كتفيها :

– أين تذهبين في هذا البرد ؟

– سأقوم ببعض التمارين ، تعالي معي بدلاً من البقاء كالقطة بجانب النار .

فقالت لها :

– شكراً .. أفضل البقاء بجانب النار .

وبعد دقائق جرفت جو الثلج من أمام الحديقة وفتحت ممراً واسعاً إلى الطريق ، وقد فرحت بيث بذلك لأنها تستطيع القيام بنُزهة مع دُماها التي تحتاج إلى الهواء الطلق .

كان الصمت مخيماً على المنطقة التي يقع فيها بيت آل مارش ، خاصة وأن البرد شديد والثلج يتساقط بغزارة ، ولم يكن أمام البيت سوى قصر السيد لورنس بحديقته المغطاة بالثلج وممراته النظيفة

ونوافذه المطلية ، والكآبة مخيمة عليه لأنه لا يسكنه سوى السيد لورنس وحفيده .

وكم تمنت جو أن تكتشف أسرار هذا القصر الذي يبدو لها مغلفاً بسحر خاص ، وأن تتعرف على الفتى لوري .

وذات يوم ، كانت تتراشق بكرات الثلج مع أختها إيمي ، فلمحت خيال الفتى الخجول وراء النافذة .

فقالت جو :

– أرى أن أقفز فوق السور وأقرع الباب وأقول للسيد الهرم : إن لوري يحتاج إلى من يرافقه . ولم توافقها إيمي على هذه الفكرة .

من الغد غادر الشيخ القصر ، ووقفت جو تنظر إلى النافذة فلمحت الفتى وراءها ، فرمت إليه بكرة الثلج عربون تحية ، ففتح النافذة فوراً .

قالت له جو :

– كيف الحال ؟ هل أنت مريض ؟

فقال :

– إني مصاب بزكام منذ أسبوع .

– وماذا تفعل ؟

– لا شيء .

– ألا تطالع الكتب ؟

– قليلاً ، إني شديد التعب .

– ألا تزور الأصدقاء ؟

– قليلاً ، لأني لا أطيق ضوضاء الأصدقاء ، وأما الصديقات فليس لي صديقات .

– ونحن ؟ إننا أربعة .

– صحيح ، هل تدخلين ؟

قالت جو :

– إنني كثيرة الضوضاء عادة ، ولست لطيفة جداً ، ولكن إذا أذنت لي فسوف أزورك .

فأغلق لوري النافذة واندفع ينظم غرفته على الرغم من وجود الخادمة ، وبعد قليل كانت جو تقرع الباب ففتحه الخادم مندهشاً :

– السيد لوري من فضلك ؟

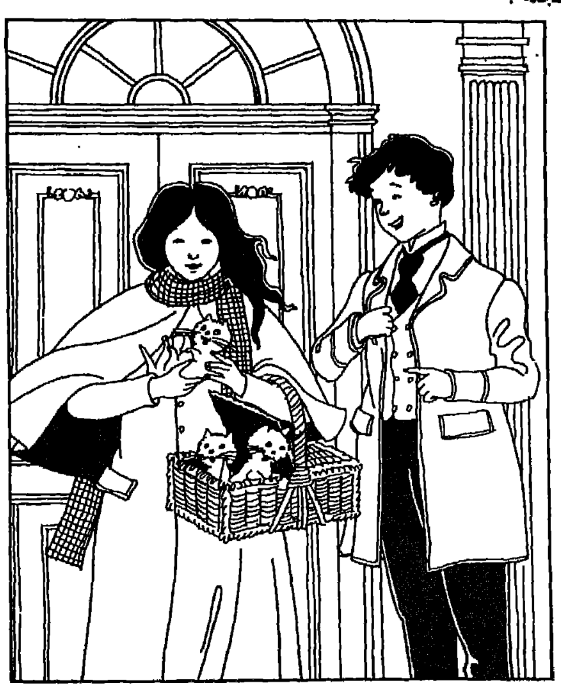
وهتف لوري من أعلى الدرج :

– تفضلي آنسة جو .. تفضلي .

قالت جو وهي تنفض حذاءها أمام الباب :

- ماما تبعث إليك بتحياها ، وميغ أرسلت قالب الكاتو هذا ، وبيث تعيرك قططها على شرط أن تعيدها لها .

وحين رأى القطيطات تموء بأصواها الثاقبة زال عن لوري خجله .



جلست جو تتبادل الحديث معه في غرفته فقالت :

– يبدو أنك تعرفنا جيداً .

فخفض لوري رأسه وقال :

– إني أشعر بالندم ، فقد كنت أراقبكن من بعيد ، حين لا تسدلن الستار مساء فأراكن بوضوح ، أحب رؤيتكن مع والدتكن ، وكم تمنيت لو تكون لي أم مثلها .. ولكن أمي متوفاة كما تعلمين . ورمى قطعة حطب في المدفأة ليخفي اضطراب شفتيه .

قالت جو :

– لن نسدل الستار أبداً إذا كان هذا يسليك ، ولكن الأفضل أن تأتي لزيارتنا ، هل يسمح لك جدك بهذا ؟

قال لوري :

– أظنه يسمح لي إن طلبتْ منه والدتك ذلك ، إنه رجل طيب ، وهو مشغول بكتبه ، ولا أدري ما أفعل في البيت بعد أن يذهب الأستاذ الذي يعلمني ، وأحس بالسأم الشديد .

وضحك لوري طويلاً حين حكت له جو عن العمة مارش وكلبها الضخم وببغائها الذي يتكلم الإسبانية ، ثم حدثته عن الكتب ، فكان فرحها عظيماً إذ تبين لها أنه مهتم بالكتب مثلها .

فنهض قائلاً :

– تعالي تفرجي على المكتبة ، لا تخافي ، جدي ليس هنا .

فقالت جو وهي ترد شعرها الكستنائي عن عينيها :

– أنا لا أخشى أحداً .

وسمعت الباب يفتح فارتعدت قليلاً ، فقال لها لوري بمكر :

– ولكنك قلت إنك لا تخشين أحداً ؟

وبدلت جو الحديث :

– لقد سمحت لي أمي بزيارتك لأنك مريض ، ولكن تبدو عليك الصحة الآن .

لم يكن القادم الجد ، بل الطبيب الذي جاء لعيادة لوري ، فرجاها أن تنتظره قليلاً وخرج .

وبقيت في المكتبة وحدها ، فوقفت تتأمل صورة الجد المعلقة على الحائط ، وسمعت الباب يفتح دون أن تلتفت :

– إني لست خائفة من جدك ، قد تكون نظراته حادة ولكنها ذكية ، وله شخصية متميزة ، وليس جميلاً مثل جدي ولكني معجبة به .

فأجابها صوت وراءها :

– شكراً لك يا آنسة .

والتفتت جو مذعورة فإذا هو الجد لورنس ، فاحمرت خجلاً .

فقال لها :

– لست خائفة مني إذن ؟

– لا يا سيدي .

– وتجدين جدك أجمل مني ؟

– نعم يا سيدي .

فضحك الشيخ طويلاً وصافحها ، ثم رفع بيده ذقنها إلى أعلى وتأمل وجهها الصغير وقال :

– إنك لا تشبهين جدك ، ولكنك جميلة ، والحق أنه كان رجلاً وسيماً وكان أحب أصدقائي إليّ .

فقالت وقد اطمأنت قليلاً :

– شكراً لك يا سيدي .

– ما رأيك في حفيدي ؟

– أرى أنه منعزل عن الناس ، ويسرنا أن نستقبله في بيتنا ، ولم نشكرك على هديتك لنا في عيد نويل .

– لا شيء يستأهل ، وهذه فكرة لوري ، هذا جرس الخادم يدعونا إلى شرب الشاي .

وقدم لها ذراعه بتهذيب ، فاستندت إليها وهبطا الدرج معاً . كان لوري يجري ليصعد إلى المكتبة وكاد يسقط وهو يراهما يهبطان الدرج بخطوات رزينة .

قال لوري :

– لم أكن أعلم أنك ستعود بسرعة .

– هيا تناول الشاي معنا ، وحاول أن تكون فتى مهذباً أثناء تناول الشاي .

أُعجب الشيخ بصراحة جو ونظرتها الواضحة إلى الأمور ، واستمع بانتباه إلى الحوار بينها وبين حفيده لوري الذي عادت الدماء إلى خديه ، وشعرت جو بالطمأنينة فلم تحاول التصنع ، وظلت على سجيتها ، وتركت لدى الشيخ لورنس انطباعاً حسناً .

دعاها لوري إلى زيارة البيت الزجاجي حيث أنواع الزهور تنمو على الرغم من البرد القارس ، وقد حمتها الغرفة الزجاجية من الثلج والصقيع ، وسخن هواؤها بطريقة اصطناعية ، وقطف لها لوري باقة زهر ورجاها أن تقدمها إلى السيدة مارش .

وقال :

– شكراً لها على الطبيب الجديد الذي أرسلته إليّ .

وحين عادت إلى القاعة لاحظت وجود بيانو كبير فيها .

فسألته جو :

– هل تعزف البيانو ؟

– قليلاً .

– اعزف لي قطعة لكي أكلم بيث عنها .

فتح غطاء البيانو وبدأ العزف ، فكان عزفه ممتازاً ، وتمنت لو كانت بيث حاضرة لتسمعه ، ولكنها لاحظت أن هذا لا يدخل السرور على قلب السيد لورنس .

وتوقف لوري عن العزف فجأة ، وحين ودّعها سألته إن كانت قد فعلت شيئاً لا يرضى عنه الجد .

فقال لوري :

– لا .. الأمر يتعلق بشيء آخر .. سأحكيه لك فيما بعد .

ولم تجرؤ على الاستفسار أكثر من ذلك .

بعد أن عادت جو إلى بيتها وحكت لأخواتها عن زيارتها ، تمنت ميغ لو تتجول في الحديقة الشتائية ، وتصورت بيث نفسها تعزف على البيانو الكبير ، وتشوقت إيمي لمشاهدة اللوحات .

وقالت الأم تعليقاً على كره الجد للعزف على البيانو :

– إن والدة لوري امرأة إيطالية وعازفة مشهورة ، ولكن هذا الزواج لم يرض الجد عنه . ورفض أن يقابل ولده من أجل زوجته ، وقد توفي والدا لوري وهو صغير ، فكفله جده ورعاه واعتنى بصحته الضعيفة ، وكان لوري يحب الموسيقا ، ولكن جده لا يريد له أن يغدو موسيقياً ، والموسيقا تذكره بتلك المرأة التي يكرهها ، وهذا تفسير ما رأيت .

قالت ميغ وهي حالمة :

– يالها من قصة رومانسية !

قالت جو الواقعية :

– بل هي قصة سخيفة !

الفصل السادس

كيف اكتشفت بيث القصر



من صباح الغد جاء السيد لورنس لزيارة آل مارش ، وتحدث مع السيدة مارش عن الأيام الخوالي وعن والدها ، وامتدح تربية البنات ، ولم تتخل بيث عن خجلها .

إن ما يزعج البنات الأربع هو أن السيد لوري ثري فاحش الثراء ، على حين أنهن فقيرات يخجلن من قبول خدماته وهداياه .

ولا بد من القول إن حياة البنات النشطة قد أثرت في لوري .

وبدأ أستاذه يشكو من إعراضه عن الكتب وانصرافه إلى حياة الناس ، وأفضى بشكواه إلى الجد الشيخ .

فقال له :

– امنحه إجازة من الدراسة بعض الوقت .

فرحت البنات بالإجازة فرَحَ لوري بها ، فتجولت ميغ على هواها في الحديقة الشتائية ، وكانت تقطف من حين إلى آخر باقة من الأزهار ، وجو تلتهم الكتب التهاماً ، وتُضحِك الشيخ بتعليقاتها المسلية ، وأما إيمي فقد عزمت على نسخ اللوحات كلها ، ولوري يتصرف كالسيد المطلق في القصر مما أبهجهم جميعاً .

الفتاة الوحيدة التي لم تستمتع بزيارة القصر هي بيث وقد اصطحبتها ميغ معها ، ولكنها قررت ألا تعود من شدة خجلها ، ولا ندري كيف علم السيد لورنس بالأمر ، فعزم على أن يستدرجها بطريقته . ففي إحدى زياراته للسيدة مارش أفاض في الحديث عن الموسيقيين الذين قابلهم وعن حفلات الأوبرا التي شهدها ، ثم ختم حديثه قائلاً :

– إن لوري يهمل الموسيقى الآن ، حتى إن البيانو قد صدئ فلو كانت إحدى بناتك تود العزف عليه لما أزعج هذا أحداً .

فتقدمت بيث خطوة إلى الأمام وقد جذبها حديثه .

واستأنف قائلاً :

– لأن البيانو في القاعة وأنا في مكتبي ولوري خارج البيت معظم الوقت ، بحيث إن البيانو لا يستعمله أحد .



لكي تكتمل التجربة منحت حنة إجازة يوم السبت ، وظلت راقدة في سريرها ذلك الصباح .

وقلقت البنات لغياب الأم عن فطور الصباح ، فقالت لهن ميغ :

– لا .. ماما ليست مريضة ، سوف تستريح النهار كله ، وقد قلت لها إننا سنتدبر أمرنا .

وقالت جو :

– سأقوم بطهي الطعام .

واصطنعت ميغ لهجة الأمر لأنها الكبرى وقالت :

– سأحمل إلى أمي فطورها .

ثم تولت إشعال النار ، وقضت نصف ساعة وهي تحاول ذلك حتى احمر خداها من كثرة النفخ واتسخت يداها .

وقالت جو :

– سندعو لوري .

ولاحظت بيث :

– قبل أن تدعيه حاولي أن تعرفي ما عندنا من طعام .

– الخزانة عامرة بعلبات لحم البقر والبطاطا ، وسوف أحضر طبقاً شهياً .

ونصحتها ميغ أن تسأل أمها أولاً .

ووافقت الأم على هذه الدعوة ، وتركت لجو حرية التصرف .

مضت جو إلى السوق واشترت ما يلزمها من الخضار ، ولم تحسن اختيارها لأنها لم تكن خبيرة في التسوق .

ورجعت إلى البيت فوجدت أن أدوات المطبخ وسخة وتحتاج إلى الماء الساخن لغسلها ، ولا بد من إشعال الموقد للحصول على الماء الساخن ، وهكذا رأت نفسها في دوامة من العمل المتواصل .

نزلت السيدة مارش من غرفتها في هذه الآونة ، وودعت بناتها لأنها ستتغدى خارج البيت ، وشعرت كأنها تتخلى عنهن ، وتضاعف هذا الشعور حينما دخلت الآنسة كروكر على غير ميعاد ، وهي عانس يدعونها من حين إلى آخر لأنها شديدة الفقر متقدمة في السن ، وكانت هذه العانس جريدة متنقلة عن أخبار الناس وأعمالهم ، ووصل لوري بعدها .

استطاعت جو بعد جهد جهيد أن تحضر وجبة الغداء ، ولم تُكلل جهودها بالنجاح لأنها تركت الخضار تغلي في الماء مدة طويلة ، فتحولت إلى كتلة هلامية متماسكة لا صلة لها بالخضار ، وعلى

العكس من اللحم الذي سارعت إلى انتشاله قبل نضجه ، فكان قاسياً لا يؤكل .

ولم تجرؤ جو على النظر إلى أحد ، فكانت الآنسة كروكر تحدق فيها مذهولة ، وإيمي تخالسها النظر ، ولم تقل ميغ شيئاً .

وحاول لوري أن يخفف من وطأة الحالة فكان يتكلم عن أشياء كثيرة لا صلة بينها .

ثم قدمت جو الفريز والقشدة التي صنعتها بنفسها ، وتذوقتها الآنسة كروكر فقطبت جبينها وطلبت كأس ماء ، ودفع النهم إيمي إلى أخذ ملعقة كبيرة منها وجعلتها في فمها ، ولكن توسعت عيناها وغادرت المكان مسرعة .

ولم يتناول منه سوى لوري الطيب ، الذي كان يتذوقه من طرف لسانه وهو ينظر إلى صحنه .

ولم تأكل جو من الفريز ، فقد لا يكفي الجميع ، ونظرت إلى ميغ وقالت مذعورة :

– ماذا هناك بحق الله يا ميغ ؟

– لقد وضعت الملح بدلاً من السكر !

والتقت عيناها بعيني لوري فضحكا ، ثم امتدت عدوى الضحك إلى الجميع حتى الآنسة كروكر التي لا تضحك إلا نادراً ، وانتهى الغداء نهاية مرحة .

انصرفت بيث إلى ترتيب الأسرّة وتنظيف المطبخ ، واصطحب لوري إيمي معه في نزهة إلى ضفة النهر ، وأما الآنسة كروكر فقد ودعتهن فرحة لأن جعبتها مملوءة بالأخبار عن هذا الغداء العجيب .

عادت السيدة مارش إلى البيت والبنات ما يزلن مشغولات بترتيبه ، وسرعان ما تدفق الزوار عليهن ، فكان من الواجب إعادة تسخين الماء وتحضير الشاي وترتيب البيت .

حين جلست السيدة مارش مع بناتها في الحديقة قالت جو :

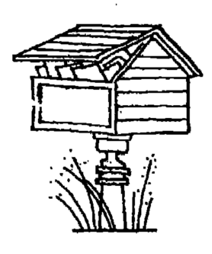
– يا له من نهار فظيع ! العطلة شيء متعب ، وكنت أتمنى أن أعمل أو أقرأ شيئاً .

– هناك أمر لا بد أن تتعلميه ، وسيكون من مصلحتك : هو الطبخ .

ووافقت جو على هذه الفكرة .

الفصل التاسع

النزهة



صباحاً كانت بيث مكلفة بتوزيع الرسائل ، وتستمتع بعبور الحديقة – التي لا تزال غارقة في ندى الصباح – لكي تفتح علبة الرسائل وتعود محملة بها ، وقالت :

– باقة الأزهار المعتادة من لوري لماما ، ورسالة شخصية لميغ وهي رسالة وفردة قفاز .

قالت ميغ :

– غريب ، لقد نسيت زوج قفازات لدى بعض الأصدقاء وهم يرسلونها الآن ، ولعل الفردة الأخرى سقطت منك في الحديقة .

– لا ، لم تسقط مني ، ولا يوجد في الصندوق سوى فردة واحدة .

– لا بأس ، أما الرسالة فهي ترجمة لأغنية ألمانية أُحبها أرسلها إليّ السيد بروك .

وتابعت بيث حديثها :

– أما للدكتور جو فكتاب وقبعة قديمة .

وتساءلت جو :

– ماذا ؟

– قبعة كبيرة غطت الصندوق كله .

– آه .. إنها مزحة من لوري ، لقد قلت له إن القبعات الصغيرة لا تحمي من الشمس ، فأرسل هذه القبعة الكبيرة وقرأت البطاقة التي معها :

" عزيزتي جو :

أكتب إليك هذه الكلمات على عجل ، سيأتي لزيارتي غداً أصدقائي الإنكليز فتيان وفتيات ، وإذا كان الجو صحواً فسوف ننصب خيمة في (لونغ ميدو) ونلعب هناك ، وهم أصدقاء لطفاء ، وسيأتي السيد بروك ليكون مسؤولاً عنا ، ولا غنى لنا عنك ، ولا تخف بيث فلن يزعجها أحد ، لا تجلبي معك الطعام فكل شيء جاهز .

صديقك لوري "

وهللت جو فرحاً ، وسألتها ميغ :

– من أصدقاء لوري هؤلاء ؟

– هم عائلة (فوغن) وقد حدثني عنهم ، وهم أربعة " كات " البنت الكبرى ، وهي أكبر منك بقليل ، ثم التوأمان وهما بعمري ، والصغيرة " غراس " وعمرها حوالي تسع أو عشر سنوات وقد قابلهن في أوروبا .

فقالت ميغ :

– إن فستاني المزهّر نظيف ومكوي وهو ملائم للنُزهة ، ماذا ستلبسين يا جو ؟

– ثوبي الأحمر والرمادي المعتاد ، ليس عندي سواه للنُزهة .

– وأنت يا بيث ستأتين طبعاً ؟

– سآتي إذا لم يزعجني أحد .

– لقد وعدك لوري بذلك .

– سآتي إذن ، والسيد بروك لطيف ولكنه يخيفني .

كما تلقيت دعوة من السيد لورنس يدعوني فيها إلى العزف على البيانو بعد الظهر .

من صباح الغد كانت بيث قد استعدت قبل الجميع ، ووقفت ترصد حركات البيت المقابل وتعلن لأخواهّا عما ترى :

– السيد لورنس ينظر إلى السماء وأتمنى لو يأتي ، ولوري يرتدي بدلة بحرية ، وهذه عربة فيها سيدة وتوأمان شابان ولكن أحدهما يعرج ، وهذا (نيد موفات) قد جاء .

لم أكن أعلم أنه سيأتي ، هو الذي سلم عليك ذلك اليوم يا جو .

– نعم ، إنه هو ، وهذه سالي غاردينيه ، إني سعيدة لمجيئها .

وسألت ميغ وهي متوفزة :

– كيف تجدين ثوبي يا جو ؟

– رائع ، وهذه القبعة الصغيرة ستطيرها الريح ، وليست مثل قبعتي الكبيرة .

– ماذا ؟ هل ستضعين هذه القبعة البشعة ؟

– لا يهمني ، المهم ألا أصاب بضربة شمس .

وذهبن أخيراً إلى قصر لوري ، وفرحت ميغ حين قال لها نيد موفات إنه أجّل سفره ليراها ، وتأملت بيث الحاضرين طويلاً ثم عزمت على مرافقة أحد التوأمين الذي يعرج ويتوكأ على عكاز ، لأنه لا يؤذي ..

وسرعان ما اكتشفت إيمي صديقة لها ، إنها الصغيرة غراس .

كانت المؤونة قد أرسلت مع السيد لورنس ، ولم يكن عليهم سوى ركوب الزوارق والتجديف حتى موقع النُزهة .

أمسك لوري وجو مجدافي أحد الزوارق ، وأمسك السيد بروك ونيد مجدافي الزورق الأخر ، وركب (فرد فوغن) وأحد التوأمين زورقاً ثالثاً وجعلا يستعرضان فنونهما في التجديف .

كانت قبعة جو الكبيرة موضع تندر الجميع ، وأشاعت جواً من الفكاهة وهي ترفرف كجناحي نورس .

وتأملت كات حركات جو وقالت في نفسها إنها غريبة ولكنها ليست غبية ، وأحنت لها رأسها تحييها .

وأما ميغ فكانت جالسة في الزورق الآخر تمثل دور الفتاة الرومانسية ، على حين يجدف بها نيد والسيد بروك .

كان السيد بروك فتى وقوراً قليل الكلام ، عيناه سوداوان ، وتعتبره ميغ مثقفاً وهو في الواقع كذلك ، ويثق به السيد لورنس ثقة كبيرة ، وكان يتأملها طويلاً ولا يقول شيئاً وظنت أنها لا تعجبه ، وأما نيد فكان تلميذاً ، ويرى من واجبه أن يفعل مثل كل التلاميذ ، فيثير الضوضاء لأدنى سبب .

وكانت سالي غاردينيه مشغولة بإخفاء البقع التي تلوث بها ثوبها الأبيض الذي لا يناسب النُزهات .



ونظرت بيث إلى (فرد) وهو يتحرك بعصبية كالنملة ، وإيمي تناقش بعمق مع غراس مشكلات الدمى ومتاعبها ، ولم يلبثوا أن وصلوا إلى الخيمة البيضاء المنصوبة في (لونغ ميدو) فقفز لوري إلى اليابسة وصاح :

– أهلاً بكم في مخيم لورنس ! السيد بروك معين بقرار سام الحاكم العام للمخيم ، وأنا المساعد الأول له ، وبقية الشباب ضباط مناوبون ، وأما الأوانس فهن المدعوات ، والخيمة خاصة بهن ، وأما شجرة السنديان فهي قاعة الطعام ، وشجرة التوت قاعة الاستقبال ، ستقوم بلعبة الكروكي قبل أن تشتد الحرارة .

قال السيد لورنس متوجهاً إلى لوري :

– حضرة المساعد الأول للحاكم العام ، هلاّ تفضلت بإشعال النار وجلب الماء إلى الكتيبة ! وأثناء ذلك سأقوم مع ميغ وسالي بإعداد المائدة ، فمن منكم يتقن تحضير القهوة ؟

قالت ميغ وهي فخورة بمواهب أختها :

– هذه مهمة جو .

بعد الغداء ، قاموا بلعبة جماعية من الألعاب الإنكليزية ولعبة أخرى يتقنها الأمريكان ، ثم توجهوا إلى الزوارق وتجولوا بها في النهر ، وبقيت بيث مع التوأم الأعرج ، وعرفت أنه قد سقط عن الحصان وانكسرت ساقه ، ولم تبرأ أبداً .

وحين رجعت جو وميغ تبادلتا نظرات الدهشة وهما تريان بيث الخجولة غارقة في حوار عميق مع أحد الفتيان الذين تخشاهم .

لقد كانت نزهة ناجحة ، ودّع بعدها الإنكليز أصدقاءهم لأنهم متوجهون إلى كندا .

الفصل العاشر

قصور في الهواء



تلك العشية من شهر أيلول كانت شديدة الحرارة وكان لوري قد نصب شبكة بين شجرتين ورقد فيها ، وتساءل عما تفعل جاراته الآن ، ولكنه كان متعكر المزاج فلم يكلف نفسه هذا العناء ، وقد أغضب جدّه لأنه عزف على البيانو مدة طويلة .

وأثار الذعر لدى الخدم حين ذكر لهم أن الكلب مصاب بالسُّعار ، وتشاجر مع السائس لأنه لا يحسن العناية بحصانه ، وكان غاضباً على نفسه وعلى الناس كلهم ، ويدبر الخطط للانتقام من البشرية جمعاء .

وفكر بأن يتطوع بحاراً على ظهر إحدى البواخر حين سمع باب الجيران يغلق وهم يغادرون البيت ، ولاحظ أن كلاً منهن تحمل حقيبة بنيّة على كتفها ، قال في نفسه :

– شيء مقرف ! يذهبن في نزهة ولا أُدعى لها ؟ أين هن ذاهبات ؟ لن يركبن الزورق حتماً لأنهن لا يتوجهن ناحية النهر ، سآتيهن بمفتاح المستودع حيث تحفظ الزوارق ..

وبعد بحث طويل وجد مفتاح المستودع في جيبه ، وصعد إلى الهضبة ليراقبهن . كن جالسات في غابة الصنوبر القريبة ، ميغ جالسة على مخدة تطرز ثوباً ، وبيث تجمع أكواز الصنوبر لتصنع منها " عملاً فنياً " ، وإيمي ترسم المناظر من حولها ، وجو تحيك الصوف وهي تقرأ كتاباً وضعته على ركبتيها .

لم يدر لوري ما يفعل ، فهن لم يدعينه لمرافقتهن ، وأحس بالوحدة والسأم . حينئذٍ أبصره سنجاب صغير كان يجمع مؤونته ، فركض بين الأغصان وهو يطلق صرخات حادة .

رفعت بيث رأسها ولمحت وجه لوري من بعيد ، فأشارت إليه بيدها ، فتقدم بخطوات مترددة وقال خجلاً :

– هل يزعجكم حضوري ؟

وفتحت ميغ فمها لتتكلم ولكن سبقتها جو قائلة :

– لا ، أبداً .. تفضل .

– ولكني أراكن مشغولات ، ولا أدري ما أفعل .

قالت ميغ :

– هذه قاعدة في العائلة ، ينبغي لكل واحدة أن تشغل نفسها بعمل ما .

فتلفت لوري حوله وقال :

– وهل ينبغي لي أن أطرز أو أحيك أو أجمع أكواز الصنوبر أو أرسم المناظر ؟

قالت له جو :

– خذ هذا الكتاب واقرأ بصوت مرتفع على حين أختم هذا الجورب ، هذا خير من قول الحماقات .

سرعان ما انتهت الحكاية التي قرأها لجو ، وجلس يتأملهن ولا يدري ما يقول .

قالت جو لأخواتها :

– هل نبوح له بسر اللعبة المفضلة لدينا ؟

فأجابتها بيث :

– سيسخر منا .

فقالت جو :

– قد تعجبه ويشاركنا فيها .

فتدخل لوري قائلاً :

– أعدكن بأن أكون جاداً ، ما هي ؟

قالت بيث :

– نحن نحلم ونتخيل مدينة رائعة .

وقالت جو :

– أليس شيئاً جميلاً أن تتحقق أحلامنا ذات يوم ؟

فقال لوري وهو يرمي كوز صنوبر باتجاه السنجاب :

– لئن تحققت الأحلام فلا أدري بأيها أبدأ !

قالت ميغ :

– إن بحت لكنَّ بسري لا تسخرن مني ؟

– بل قانون اللعبة أن يبوح كلٌّ بسره ولا حرج عليه .

قال لوري :

– حلمي الكبير أن أقوم بجولة حول العالم ، ثم أستقر في ألمانيا لأتعلم الموسيقا كما أشاء ، دون التفكير بعمل آخر أو الانصراف إلى جمع المال ، وأنت يا ميغ ؟



قالت ميغ وهي تتأمل ورقة شجرة بيدها :

– أتمنى أن يكون لي بيت واسع عامر بالأشياء الثمينة من ملابس وأثاث وخدم وكثير من الأصدقاء ، ولكن بشرط ألا أظل عاطلة عن العمل ، بل أفعل الخير لكل من أحب .

وأضافت جو :

– ولماذا نسيت الزوج المحب والأطفال الأصحاء ؟ سيكون قصرك خاوياً بدونهم .

فقالت ميغ :

– أعرف أنك تحبين الخيل والكتب ..

فقاطعتها جو :

– طبعاً ، الخيل ومكتبة ضخمة تحتوي كل الكتب الرائعة ، ومحبرة تجعلني مشهورة في أقطار الدنيا ، وأتمنى أن أنجز عملاً بطولياً يتسامع به الناس ، قد تدهشون ولكني واثقة من نفسي !

وقالت بيث :

– كل ما أتمناه أن أبقى مع بابا وماما وأساعدهما .

– ولا شيء سوى ذلك ؟

– بلى ، إنه البيانو الذي أملكه وأنا سعيدة به ، أؤكد لكم .

وهتفت إيمي وقد طارت بها أحلامها :

– أما أنا فسأذهب إلى روما لأصبح أشهر رسامة في العالم .

فقال لوري :

– لكل حلمه الجميل والطموح ما عدا بيث ، وإني لأتساءل من سيحقق حلمه فعلاً ؟

قالت إيمي ورفعت قلمها عالياً :

– أنا التي سأحققه قبلكم ، فمعي مفتاح قصر الأحلام .

وقالت جو بكآبة :

– وأنا معي مفتاح القصر أيضاً ، ولكن هل يتاح لي استخدامه ؟

ورد عليها لوري بسرعة :

– بلى ، سيتاح لك .

وقالت جو :

– أقترح عليكم أن نلتقي هنا بعد عشر سنوات لنرى أين وصلنا .

قالت ميغ :

– يا رب .. سأكون عجوزاً ، سيكون عمري سبعاً وعشرين سنة .

وقالت جو :

– أنا ولوري سيكون عمرنا ستاً وعشرين سنة ، وبيث أربعاً وعشرين ، وإيمي اثنتين وعشرين ، ونمشي نادياً للعجائز والشيوخ .

قال لوري :

– آمل أن ننجز شيئاً حتى ذلك الحين ، وأخشى ألا أنجز أيّ شيء لأني أحب التسكع كما يقول السيد بروك .

قالت جو :

– أمي تقول : ينقصك هدف تسعى إليه .

فأجابها لوري فوراً :

– صحيح ، لقد صدقتْ ، إن جدي يريد لي العمل في التجارة ولا أحبها ، ولولا إشفاقي عليه لأبحرت من الغد على ظهر إحدى السفن .

قالت جو :

– سافر إذن ، ستعود لتبرهن على أنك غير محتاج إلى أحد .

فنهرتها ميغ قائلة :

– اهدئي يا جو ، وأنت يا لوري عليك الانتساب إلى الجامعة لتؤكد لجدك أنك قادر على النجاح فتهدأ خواطره ، ولن يسامحك إذا

هجرت البيت ، افعل مثل السيد بروك وسوف يقدّرك الناس ويحبونك .

وانتهز لوري هذه الفرصة لتغيير مجرى الحوار :

– السيد بروك ؟ ولكنك لا تعرفين شيئاً عنه .

قالت ميغ :

– بل أعرف الكثير ، لقد رفض منصباً هاماً في الخارج ليرعى أمه قبل وفاتها ، وهو يساعد المرأة الفقيرة التي اهتمت بأمه واعتنت بها ، إنه رجل طيب وكريم .

قال لوري :

– هذا صحيح ، وحين أكون في مثل سنه سأسبقه إلى الخيرات .

قالت جو :

– ولم لا تؤدي لجدك خدمة منذ الآن ؟

– وكيف ؟

– بأن تنجز دروسك وتجتهد في تأدية واجباتك ، لأنك حين تفعل ذلك يكون مسروراً ، وتظهر عليه الكآبة حين تهملها .

قال لوري :

– كنت أراه يمر أمام بيتكم ، ولم أعلم أنه يرسل إليكم برقيات عن دراستي .

قالت ميغ متداركة الموقف :

– نحن لا نتدخل بشؤون الآخرين ، ولم نسأله عنك وإنما لاحظنا ذلك بأنفسنا .

هذا المساء ، رأى لوري جده يستمع إلى عزف بيث ، وقد وضع رأسه بين يديه يتذكر الطفلة الصغيرة التي أحبها واختطفها الموت منه ، فقال لوري لنفسه :

– سأؤجل مشاريعي الآن ، وأبقى مع جدي فهو في أشد الحاجة إليّ .

الفصل الحادي عشر

الأسرار



جاء تشرين الثاني وقَصُر النهار وبردت الليالي ، وجو في السقيفة مشغولة وشمس الخريف الناحلة تضيء المكان .

وصلت جو إلى منتصف الصفحة فكتبت بعناية " الخاتمة " ووقعت بإمضائها وقالت لنفسها :

– لقد فعلت ما بوسعي ، وإذا لم أنجح بدأت من جديد .

فتحت الخزانة الحديدية التي تخبئ فيها أوراقها خوفاً من أسنان السنجاب ، وجذبت مخطوطة ثانية ووضعتها تحت إبطها ونزلت الدرج بهدوء .

وتناولت معطفها وقبعتها دون ان تلفت إليها الانتباه ، ثم فتحت النافذة الخلفية المطلة على الحديقة وقفزت منها ، وأسرعت في خطوها ، وحين ابتعدت مشت بخطوات رزينة ثم صعدت إلى عربة ، وحين وصلت المدينة سارعت إلى طريق جانبي فدخلته ووقفت أمام

مبنى كبير ، وقرأت اللافتة التي تشير إلى طبيب أسنان ، فترددت قليلاً ثم دخلته بعزيمة .

في الشارع المقابل كان لوري يطل من النافذة ويسائل نفسه ما عساها تفعل هنا ؟ المسكينة .. آمل ألا يؤلمها طبيب الأسنان كثيراً ! ولكن لماذا لم تخبرني لأرافقها ؟! البنات هكذا دوماً !

وخرجت بعد عشر دقائق لتجد لوري أمام الباب ، فاحمر وجهها لأنها التقت بشخص تعرفه ، فمرت أمامه وأشارت إليه بالتحية ، ولكنه استوقفها وهو يجري ويقول :

– آمل ألا تكوني قد تألمت كثيراً !

– لا ، مطلقاً .

– وحدث هذا بسرعة ؟

– بسرعة شديدة .

– ولكن لماذا ذهبت وحدك ؟

– لئلا يراني أحد طبعاً .

فقال لوري :

– وهل تركت واحدة لديه ؟

- واحدة لسوء الحظ ، ولكن آمل أن أتركك أخرى الأسبوع القادم!

- اثنتين في أسبوع واحد ؟

-- ولم لا ، سأعود ثانية لأنه حسن الاستقبال ، وأنت ماذا كنت نفعل في قاعة البلياردو ؟

– ليست قاعة بلياردو ، إنما قاعة لتعليم المبارزة ، ولكن حتى إن كانت قاعة بلياردو فأين الضرر .

– لا أريدك أن تلعب البلياردو ، وخاصة مع نيد موفات وأمثاله ، فأنا لا أحب عصابة الحمقى هؤلاء . وإذا داومت على هذه الحال ستكون مثل ابن كينغ الذي انصرف إلى اللهو والشراب وخيّب آمال والديه .

فقال لوري :

– الظاهر أن طبيب الأسنان قد آلمك ؟

فقالت :

– طبيب الأسنان ؟ أي طبيب أسنان ؟

– ألم تخرجي من عند طبيب الأسنان ؟

فضحكت جو :

– آه .. يا لذكائك !

فقال لوري :

– أين كنت إذن ؟

– هذا سر .

– قوليه لي .

– أخشى أن تردده .

– لا تخافي .. سأكتمه ، وأطلعك على سري أيضاً .

قالت جو وقد سرّها أن تبوح بسرها لأحد ما :

– لقد عرضت حكايتين من تأليفي على صحفي لأرى إن كان ممكناً نشرهما ، سيعطيني الرد الأسبوع القادم .

فهتف لوري فرحاً :

– أحسنت .. مَرْحى للروائية الأميركية الشهيرة جو مارش !

– اخفض صوتك .. وأخشى أن يرفضهما ، وحينئذٍ لا يعلم بفشلي أحد .

– بل سيقبلهما ، وحكاياتك لا تضارعها حكايات شكسبير .

ولمعت عينا جو لأن مدح صديق يساوي مديح مئات من الناس المجهولين ، وقالت :

– وأنت يا لوري ! ما هو سرك ؟

– إني أعرف أين الفردة الثانية من قفاز ميغ .

– هذا كل شيء ؟ ليس سراً هاماً .

– ولكن إذا عرفت أين هو فستغيرين رأيك .

– أين هو إذن ؟

ومال لوري على أذنها وهمس لها ، فوقفت جو تتأمله ، ثم استأنفت سيرها مسرعة وسألته :

– وكيف عرفت هذا ؟

– لقد رأيته .

– أين ؟

– في جيبه .

– منذ ذلك الوقت ؟

– تماماً .. هذا شيء رومانسي أليس كذلك ؟

– لا ، بل شيء غبي ، لن تفرح ميغ إذا علمت بالأمر .



– لقد وعدت بألا تقولي لأحد .

– لن أقول لها .

– ما رأيك بأن نتسابق حتى نهاية الهضبة ؟

ولم تتردد جو بل انطلقت كالسهم يتبعها لوري الذي سبقها بعدئذٍ بعدة أمتار .

توقفت جو وهي تلهث وقالت :

– يا له من سباق ، لقد فقدت كثيراً من أشيائي أثناءه . هل تجمعها لي من فضلك ؟

وبينما هو يلتقط ما سقط منها ، وهي ترتب ملابسها مرت بهما ميغ رائعة في ثوبها الأنيق ، وسألت أختها :

– ماذا تفعلين ؟

– إني أجمع الأوراق .

وقال لوري :

– وأنا أجمع الدبابيس والأمشاط ، والحصاد وفير هذا العام .

وامتقع وجه ميغ :

– كنتما تتسابقان ؟ متى تتركين عادة التصرف كالصبيان ؟

– لن أتركها أبداً .. ولا تحاولي أن تجعليني مثلك .

لقد أصبحت أختها تتصرف منذ مدة تصرف النساء الرزينات ، وإن السر الذي باح لها به لوري سوف يفرّق بين البنات الأربع .

وسارع لوري لتهدئة الجو قائلاً :

– ما أجملك يا ميغ ! إلى أين أنت ذاهبة الآن ؟

– كنت عائدة من بيت غاردينيه ، حكت لي سالي عن زواج بيل موفات ، هل تعلم أنها ستقضي الشتاء في باريس ؟ إنها رحلة زواج حقيقية .

– وهل تتمنين أن تكوني مثلها ؟

– طبعاً .

– هذا أفضل .

– ولماذا ؟

– لأنك لن تتزوجي رجلاً فقيراً .

وربطت جو شريط قبعتها بحركة غاضبة ، فقالت ميغ :

– لا تخافي ، لن أتزوج أي شخص يتقدم إليّ .

خلال الأسبوعين التاليين قلقت أخوات جو عليها أشد القلق فقد كانت تترقب البريد بلهفة وتسأل عن الساعي عدة مرات في اليوم ، وإذا لمحت السيد بروك قطبت حاجبيها وأدارت له ظهرها ، ثم جرت إلى أختها ميغ تعانقها ، ثم تصعد إلى السقيفة مسرعة ، وكانت تتبادل مع لوري إشارات لا يفهمها أحد سواهما .

بعد أسبوعين جلست على الكرسي وهي تقرأ الجريدة وسألتها أختها ميغ :

– هل من أخبار ؟

فقالت جو :

– لا شيء ، ما عدا حكاية منشورة في الصفحة الأخيرة .

وسألت إيمي :

– ماذا تروي ؟

فقالت جو :

– أستطيع أن أقرأها ، فهي ليست طويلة وعنوانها " الرسامون المتنافسون " .

فقالت ميغ :

– عنوان لا بأس به .

فسلّكت جو حنجرتها وبدأت القراءة ، وهي حكاية رومانسية تنتهي نهاية درامية ، وأصغت إليها الأخوات بانتباه .

قالت إيمي :

– أحب حديثهما عن اللوحات .

قالت ميغ :

– من كاتب هذه الحكاية ؟

فنهضت جو ورمت الجريدة من يدها بكبرياء ، وأعلنت بصوت مرتفع :

– الكاتب : هو أنا .

وسقط التطريز من يد ميغ ، وقفزت بيث وتعلقت بعنق جو وقالت :

– كنت واثقة أنها أنت .

وأحست جو بالانتصار .

الفصل الثاني عشر

برقية



قالت ميغ وهي تنظر من النافذة :

– إن شهر تشرين هو أشد أشهر السنة كآبة ، فالأشجار عارية والبرد شديد .

فقالت جو :

– وفيه عيد ميلادي .

وقالت بيث التي ترى الجانب المشرق من الأمور :

– لو حدث فيه شيء سعيد لوجدناه رائعاً .

فقالت ميغ :

– لم يحدث فيه شيء سوى أننا نكدح كالدّواب .

وصفقت إيمي الباب وخرجت تعبيراً عن اعتراضها على الألفاظ النابية .

ونظرت بيث من النافذة وقالت :

– هذان حدثان سعيدان ، ماما عائدة ، ولوري يقفز فوق السياج كأنما يريد أن ينقل إلينا نبأ مستعجلاً .

وسألت الأم حين فتحت الباب :

– هل توجد رسالة من أبيكن ؟

وقال لوري :

– من يتنَزه معي بالعربة ؟ لقد دخت من درس الرياضيات ، وسأصحب السيد بروك إلى منْزله فمن منكن يرافقني ؟

قالت ميغ :

– الحق أن لدي أشغالاً لا بد من قضائها .

وكانت أمها قد نبهتها إلى أنه لا يليق بها أن ترافق مدرس السيد لوري .

في هذه اللحظة قرع الباب ، وهرعت حنة لتفتحه وعادت ومعها ورقة زرقاء وهي تقول :

– إنها هذه البرقية المخيفة يا سيدتي .

فتحت السيدة مارش الرسالة ، وسقطت على الكرسي مغمى عليها ، وجرى لوري يأتيها بالماء ، وأمسكت ميغ بيدها تدعكها وهي

فزعة ، وبكت إيمي بصوت مرتفع ، وأخذت جو البرقية وقرأتها بصوت عال :

" زوجك مريض ، الرجاء المجيء دون تأخير

التوقيع : مشفى بلانك – واشنطن " .

وجعلت السيدة مارش تنتحب وتقول :

– آه يا بنات ! .. أبوكن .. أبوكن .

وارتفع صوت البنات ونحيبهن ولوري يحاول تهدئتهن ، ثم تدخلت حنة العجوز قائلة :

– ليس هذا وقت البكاء يا سيدتي ، كفكفي دمعك وسارعي لرؤية سيدي المريض ، سأعدّ لك ما تحتاجينه .

وضغطت على يد سيدتها وخرجت .

قالت السيدة مارش وهي تستعيد هدوءها وتمسح دموعها بمنديلها :

– حنة على صواب يا عزيزاتي ، لنفكر بهدوء ، أين لوري ؟

وأجاب لوري من الغرفة المجاورة التي ذهب إليها أدباً :

– هنا ، يا سيدتي .

– هل تستطيع إرسال برقية إلى واشنطن تخبرهم فيها أني قادمة ، وسوف أستقل قطار الغد صباحاً ؟

– هل تحتاجين شيئاً آخر ؟

– نعم ، أوصل رسالة إلى العمة مارش . أعطيني ورقة وقلماً يا جو .

وأسرعت جو لأنها تعلم أن أمها ستستدين بعض المال من العمة ، وبعد قليل انطلق لوري على حصانه بسرعة البرق ، وطلبت السيدة مارش من ميغ أن تعلم السيد لورنس بما حدث ، فجاء بعد قليل وعرض عليها مرافقتها إلى واشنطن ، ولكنها رفضت شاكرة ، فوعدها أن يهتم بالبنات أثناء غيابها ، فاطمأن قلبها لذلك ، وفجاة ضرب السيد لورنس جبينه بكفه ومضى .

بعد دقائق دخل السيد بروك وخاطب ميغ قائلاً :

– إني آسف لهذا النبأ يا آنسة ميغ ، وإني أقترح على والدتك مرافقتها إلى واشنطن ، وكان السيد لورنس قد كلفني بمهمة فيها ، ولا بأس من تقديمها عدة أيام . ويسعدني أن أساعد السيدة مارش .

فمدت له ميغ يدها بحركة آلية وصافحته بحرارة :

– نشكر لك مساعدتك ، وهذا يطمئن قلبي لأن والدتي لن تسافر وحدها .

وسكتت ميغ لا تدري ما تقول أكثر من ذلك ، وأحس السيد بروك بالحرج لأنه لم يقم بأية تضحية .

واستقبلت السيدة مارش عرض السيد بروك بسرور ، وبعد قليل رجع لوري ومعه ظرف فيه المال المطلوب ، ورسالة موجهة إلى السيدة مارش تعلمها بأن ابن أخيها الدكتور مارش قد أساء التصرف حين تطوع في الجيش وترك أسرته بلا معيل ، وأنه لو استمع نصيحتها لكان الآن بين أسرته ... وكلام من هذا القبيل .

قرأت السيدة مارش الرسالة وهي تصرّ بأسنانها ، ثم وضعتها في الدرج وجعلت النقود في محفظتها .

في المساء ، كان البيت يضج بالحركة ، وقد جلست السيدة مارش وميغ تنهيان بعض أشغال التطريز المستعجلة ، على حين كانت حنة العجوز تكوي الملابس وهي تلهث كالقاطرة ، وتقرب المكواة من خدها لتختبر حرارتها وتكاد تحرق وجهها من الغيظ .

أثناء ذلك ، كانت إيمي وبيث تعدان الشاي ، واختفت جو من البيت ، وبحث عنها لوري ولم يجدها .

وعادت جو بعد ساعة ، وقد ظهر عليها الحزن والكآبة على غير عادتها .

وسألتها أمها بصوت مذعور :

– ما بك يا صغيرتي ، وما هذه النقود ؟

وكانت جو قد وضعت على الطاولة عدداً من القطع النقدية .

قالت جو بصوت مرتجف :

– هذه خمسة وعشرون دولاراً ، ولا تخافي لأني لم أسرقها ولم أستدنها ، فقد بعت شيئاً خاصاً بي ، وهذه مساهمة لمعالجة بابا ، شيء قليل ولكنه نافع .

أنهت جو كلامها ونزعت قبعتها الكبيرة عن رأسها ، فما كان إلا أن صرخت السيدة مارش :

– يا إلهي ، شعرك يا جو ! بعت شعرك الجميل !

ونهضت على قدميها وضمت إلى صدرها ابنتها المرتجفة ، وذهلت أخواتها من المفاجأة والإعجاب ، لقد باعت جو ما هو سبب جمالها كله .

فقالت جو بصوت تحاول أن يكون مرحاً :

– هكذا أحسن ، أحس برأسي خفيفاً ، وأكد لي الحلاق أنه سرعان ما ينمو .

ولاننسى أن النساء في ذلك العهد لايقصصن شعرهن قصيراً أبداً ، ونستطيع أن نتصور جو في تلك الحالة .

قالت ميغ :

– لا ريب أنك عانيت أشد المعاناة ، وأنت ترين خصلات شعرك تتساقط تحت مقص الحلاق .

قالت جو :

– طبعاً ، وقد احتفظت بخصلة شعر طويلة أقدمها إليك تذكاراً يا ماما .

فأخذتها السيدة مارش وقبّلتها وجعلتها في درج بجانب خصلة أخرى بيضاء ، وأقفلته بالمفتاح .

بعد أن تناولن الشاي ، قالت السيدة مارش :

– إلى النوم الآن ، يجب أن نستيقظ في الصباح الباكر .

الفصل الثالث عشر

مرض بيث



من صباح الغد والشمس لم تطلع بعد ، نهضت الفتيات يرتدين ملابسهن على ضوء المصباح . وقد تعاهدن على ألا يبكين حين تسافر أمهن ، وزاد هذا في حزنهن .

وكانت الحقيبة الكبيرة في الدهليز ، ومعطف السيدة مارش ملقى على الكرسي .

وأعدت حنة فطوراً شهياً ، ولكن السيدة مارش لم تذقه ، وكان واضحاً أنها بكت طول الليل لأن عينيها محمرتان ووجهها شاحب . ولم تستطع البنات الوفاء بوعدهن ، فقد ملأت الدموع عيني ميغ ، ولم تقدر جو الصلبة على إخفاء حزنها ، أما إيمي وبيث فقد سيطرت عليهما كآبة قاتمة .

ولم يتبادلن الحديث أثناء الفطور ، وبعد قليل سُمع صوت العربة التي يقودها السيد بروك تتوقف أمام الباب .

قالت السيدة مارش :

– سأترككن في رعاية حنة ، إنها امرأة قوية وفية ، وسيكون السيد لورنس مسؤولاً عنكن وسيرعاكن كبناته ، لست قلقة عليكن ولكن أرجوكن الا تبكين ولا تحزنّ في غيبتي ، وتابعن أشغالكن كالمعتاد ، فالبطالة لا تفيد شيئاً ، سأعود قريباً .

ونهضت بسرعة حين طرق السيد بروك الباب ، وودعت البنات أمهن بمرح مصطنع ، وأدخلت ابتسامة السيد بروك شيئاً من الثقة إلى نفوسهن .

قالت جو بعد أن ابتعدت العربة ورجعن إلى القاعة :

– أظن أن زلزالاً أصاب البيت ، أو شيئاً شبيهاً بالزلزال .

قالت ميغ بأسى :

– نعم ، البيت خاوٍ كالمقبرة .

تركتهن حنة دقائق لأحزانهن ، ثم دخلت وهي تهتف :

– هيا يا بنات ، افعلن كما أمرت أمكن ، اشربن القهوة ولتنصرف كل واحدة إلى أشغالها .

ووضعت على الطاولة صينية فيها إبريق القهوة والفناجين .

فأشرقت الابتسامة على الوجوه ، وسرعان ما عادت البنات إلى حياتهن المعتادة .

قالت جو :

– يجب أن يكون شعارنا " الأمل والعمل " . سأذهب لرؤية العمة مارش ، وأظنها ستقدم لي موعظة طويلة .

وقالت ميغ :

– كنت أفضل البقاء هنا ، ولكن من واجبي أن أرعى أبناء كينغ الملاعين .

وقالت إيمي بصوت رزين :

– سنقوم بأشغال البيت في غيابك فلا تقلقي !

وتابعتها بيث :

– تماماً ، وسوف نساعد حنة في أعمالها .

وحين انصرفت الفتاتان لوّحتا بيديهما كالعادة ، ولكن بيث ردت عليهما بدلاً من السيدة مارش .



قالت جو :

– إن بيث تستعد لتكون ربة منزل .

وقالت ميغ :

– أظن أن شعرك يلائمك ، ولك مظهر صبي الآن كما كنت تشتهين .

ضحكت جو ، وشدت قبعتها على رأسها الصغير فوق كتفيها العريضين ، صحيح أنها تبدو مثل صبي ولكنها تشعر كأنها خروف جزّوا صوفه في برد الشتاء .

بعد أيام ، وصلت الأنباء من واشنطن ، فالسيد مارش قد اشتد به المرض ، ولكن وصول زوجته قد شد من عزيمته فتحسنت صحته ، وكان السيد بروك يرسل كل يوم برقية يطمئنهن فيها عن حالة والدهن ، وكانت ميغ تقرؤها بصوت مرتفع وقد أخذت مكان أمها في العائلة بحكم السن ، وبدأت حنة تناديها " الآنسة مرغريت " .

وتوالت الأنباء تعلن عن تحسن صحة الأب ، وبعثت البنات رسائل تصف حالة البيت التي تسير على أحسن ما يرام ، ولكن الأمور لم تستمر على مثل هذه الدقة والنظام إلا أسبوعاً واحداً ، وذلك أن جو الطاعة الذي سيطر على البيت كان سببه الخوف من

المجهول ، ولكن حين وردت الأنباء مطمئنة من واشنطن تخلت البنات عن حذرهن وعدن إلى مألوف عاداتهن ، مما يؤكد أن الإنسان لا يستقيم إلا إذا حلت به المصائب ، وتخيلت البنات الأربع أنهن يستأهلن شيئاً من الراحة بعد هذا المجهود الدائب .

أما جو التي لم تعتد على الشعر القصير فقد أصابها الزكام وأقعدها البيت ، فصرفتها العمة مارش من الخدمة حتى تستعيد صحتها ، فانصرفت إلى القراءة وهي تلهو بالسنجاب .

ولاحظت إيمي أن غسل الصحون لا يتلاءم مع مواهبها الفنية ، فانصرفت إلى أوراقها وأقلامها .

وواظبت ميغ على الذهاب إلى عائلة كينغ ، وحين تعود متعبة تنصرف إلى كتابة الرسائل المطولة إلى أمها وأبيها .

ولم تستمر على عادها سوى بيث التي كانت تقوم بالأعمال كلها بدلاً من أخواها .

قالت بيث مخاطبة ميغ :

– لقد أوصتنا ماما بعائلة (هميل) ألا تستطيعين الذهاب إليهم ؟

– لا ، ليس اليوم ، لأني متعبة .

– وأنت يا جو ؟

– ألا ترين حالتي ؟!

قالت بيث :

– لقد ذهبت عدة مرات والرضيع قد اشتد به المرض ، وأرى من واجبك أن تذهبي يا جو .

قالت ميغ :

– سأذهب غداً بالتأكيد ، واطلبي من حنة أن تحمل إليهم بعض المؤونة .

قالت جو مخاطبة بيث :

– أراك شاحبة اللون ، اخرجي لتروحي عن نفسك قليلاً .

قالت بيث :

– أحس بصداع منذ الصباح .

وتمددت على الأريكة ، وانصرفت البنات إلى أشغالهن .

انقضت ساعة ولم تعد إيمي إلى المنزل ، وصعدت ميغ إلى غرفتها تقيس فستاناً جديداً انتهت من خياطته ، وجو تكتب بسرعة هائلة وقد هبط عليها الإلهام ، ونهضت بيث متكاسلة وتوجهت إلى المطبخ ، فرأت حنة نائمة على الكرسي ، فلم تزعجها وإنما جمعت بعض المؤونة

والتفت بمعطفها وخرجت . وعادت من زيارتها متاخرة ، ولم يلحظ أحد غيابها ، فصعدت إلى غرفة أمها واستلقت متهالكة على السرير . وحين دخلت جو ورأتها على هذه الحال سألتها بيث :

– هل أصبت بالحمى القرمزية ؟

– نعم .. منذ سنوات أنا وميغ بوقت واحد ، ولماذا ؟

– لأن الرضيع قد مات .

– أي رضيع ؟

– ابن السيدة هميل ، مات بين يدي أمه ، هذا مخيف !

وضمتها جو بين ذراعيها وقالت :

– آه يا عزيزتي ، ما كان ينبغي أن أتركك تذهبين إليها .

فقالت بيث :

– لقد وضعت الرضيع في حجري ، وكانت أمه قد أسرعت لاستدعاء الطبيب ، وحاولت أن أضم الصغير إلى صدري لأدفئ قدميه ، وحاولت أخته أن ترضعه بعض الحليب ولكنه لم يفتح فمه ، وحين وصل الطبيب فحصه وقال إنه ميت ، ثم سألني إن كنت قد أصبت بالحمى القرمزية سابقاً فقلت له لا ، حينئذٍ طلب مني الإسراع

في مغادرة الحجرة لئلا أصاب بالعدوى ، ولكني كنت أزورهم كل يوم كما تعلمين ، ولا أحس بأني على ما يرام .

وجذبت جو ما بقي من شعرها وقالت :

– آه ، لو كانت ماما هنا ، لقد أصبت بالحمى القرمزية حتماً . سأخبر حنة فهي خبيرة بهذه الأمراض .

قالت بيث :

– لا تدعي إيمي تدخل الغرفة ، وأخشى أن تصاب بالعدوى ، ولا خوف عليك ولا على ميغ .

قالت جو :

– أتمنى لو أصاب بالحمى لأني تركتك تذهبين إلى عائلة هميل .. آه يا عزيزتي بيث !

وسارعت إلى حنة فأيقظتها بغتة ، فتولت الأمور بنفسها وطمأنت جو بأن الحمى القرمزية ليست قاتلة إذا عولجت في الوقت المناسب ، وقالت :

– ولكن يجب استدعاء الطبيب حالاً ، وسوف نبعد إيمي عنها ، ستقيم عدة أيام لدى العمة مارش وستبقى إحداكما في البيت للعناية ببيث .

قالت ميغ :

– سأبقى ، إني البنت الكبرى .

فاعترضت جو :

– بل سأبقى أنا ، لقد وعدت أمي بأن أزور عائلة همبل ، وتركت بيث تذهب بدلاً مني فمرضت بسببي .

وتدخلت بيث قائلة :

– اذهبي إلى عملك لدى عائلة كينغ وستبقى جو بجانبي .

قالت ميغ :

– سأحذر إيمي .

ولكن إيمي اندفعت تبكي بأعلى صوتها وترفض الذهاب إلى العمة مارش . ودخل لوري لزيارتهن فرأى إيمي على هذه الحال ، ودهشت إذ لم يعاتبها وإنما كان يصفّر بهدوء .

وسألها :

– ألا تصدقين أن هذا المرض مخيف ؟

– لا .

– إذن أصغي إليّ ولا تبكي ، هذا المرض الذي تتحدثين عنه باستخفاف مرض قاتل ، ستذهبين إلى العمة مارش ، وسآتي لآخذك

كل يوم ونتنَزه معاً بالعربة أو سيراً على الأقدام ، وإذا بقيت هنا فسوف تزعجين الجميع ، ولا تستطيعين الخروج من غرفتك بسبب مرض بيث .

فارتفع صوتها بالبكاء :

– لا ، لا أحد يحبني هنا ، ويريدون أن يتخلصوا مني .

فقال لوري :

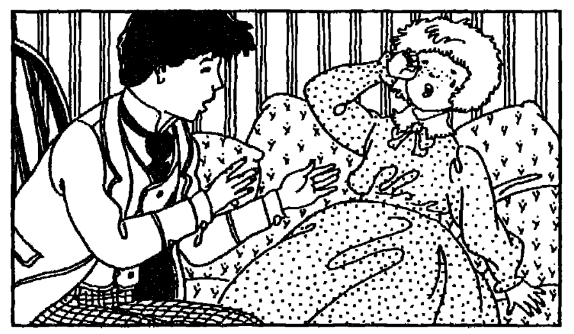
– يا إلهي ! لا أحد يريدك أن تمرضي ، أم أنك تريدين الإصابة بالحمى من باب الفضول ؟

– سأصاب بها على كل حال لأني بقيت مدة طويلة مع بيث .

– ولذلك يجب أن تبتعدي عنها ، هذا المرض ليس لعبة جديدة .

– ولكن العمة مارش مملة ولا شيء يرضيها .

– لا تخافي ، سأعقد صداقة مع العمة مارش وسوف تدعنا نفعل ما نريد .



فقالت إيمي وقد بدأت تقنع :

– ستأتي كل يوم إذن ؟

– هذا وعد .

– وحين تتماثل بيث للشفاء أعود إلى المنزل ؟

– طبعاً ، اتفقنا إذن !

ودخلت ميغ وجو فسألهما عن حالة بيث وكان شديد القلق ولكنه لم يُظهر ذلك .

قالت جو :

– إن المصائب تتقاطر علينا هذه الأيام .

– هل تجدين من الواجب إخبار والدتكن ؟

قالت ميغ :

– لا أدري ، ولكن حنة ترى أنه لا يجوز إضافة حزن إلى أحزانها ، فهذا يقلقها ويقلق والدي بلا فائدة .

قالت جو :

– ولكن الأفضل أن نستدعي الطبيب .

قالت ميغ :

– سأذهب حالاً .

قال لوري :

– مستحيل أن تذهبي أنت ، لقد أنهيت دروسي وسأذهب لاستدعاء الطبيب .

– تأخذ دروساً أثناء العطلة ؟

– ولِمَ لا ، إني أتبع مثال جاراتي الظريفات .

وانطلق يجري ، وتأملته جو يبتعد وقالت :

– هذا الفتى يمنحني أملاً كل يوم .

قالت ميغ وهي شاردة :

– لا بأس به من فتى .

أكد الطبيب أن بيث مصابة بالحمى القرمزية ولكن بشكل خفيف ، ووصف لها ولإيمي بعض الأدوية ، وذهبت إيمي إلى العمة مارش فاستقبلتها بترحابها المعتاد .

– هذه نتيجة زيارة الفقراء المصابين بالأمراض ، ولا أحد يصغي إلى نصائحي ، لتبق إيمي عندي ولكني أظنها ستمرض أيضاً .. انظروا إليها .

وطفرت الدموع من عيني إيمي ، فقالت العمة مارش بصوت أجش :

– لا فائدة من البكاء ، فأنا لا أحب النحيب .

وجذب لوري ذيل الببغاء فصرخ بصوت غريب :

– اخرج من هنا أيها الحيوان القبيح !

فضحكت إيمي ، وسألت العمة جو :

– كيف حال والدك ؟

– صحته لا بأس بها ، إنه يتماثل للشفاء .

– ولا يستمع إلى نصيحة أحد .

وصرخ الببغاء من جديد :

– اسكت أيها الحيوان القبيح ! صباح الخير سيدتي !

وصفق بجناحيه ، وهبط على مرقبه لكي ينقر قدمي لوري الذي كان يمسك خاصرتيه من الضحك .

وبقيت إيمي عند العمة مارش .

الفصل الرابع عشر

لحظات حزينة



اشتد مرض بيث ، وكان الطبيب عظيم الثقة بحنة التي ترعاها كأنها جدتها الفعلية .

ولبثت ميغ في البيت لئلا تُعدي أبناء العائلة كينغ ، وانصرفت جو إلى العناية ببيث التي كانت تفتح عينيها الزرقاوين على سعتهما وهي تتلفت حولها ، ولكن حالتها تسوء يوماً بعد يوم ، وبعد أيام اشتدت بها الحمى وانتابها الهذيان ، ولم تعد تتعرف على أحد .

وتحاول في هذيانها أن ترفع صوتها بالغناء وتنادي أمها بأنين يذيب القلوب .

وتضاعفت المصيبة برسالة وصلت من واشنطن تعلمهن أن الوالد قد عاوده المرض وهو بأسوأ حال ، وأصرّت حنة على ألا تخبر السيدة مارش ، ولكنها كانت شديدة القلق على الفتاة .

وكانت الأيام التالية أسوأ من سابقاتها ، فبيث لا تنام إلا قليلاً وهي تهذي بكلام غير مفهوم ، وكان الطبيب الحائر يزورها مرتين يومياً ، ولم تفارق غرفة بيث حنة التي احمرت عيناها من الإرهاق وقلة النوم ، وأعدت ميغ وجو رسالة إلى الأم ترسلانها عند الحاجة ، ولم تعد الأدوية ناجعة حتى إن الطبيب التفت إلى حنة وقال :

– أرى من الضروري أن تعود السيدة مارش ، يجب أن تأتي مسرعة .

فأخفت العجوز وجهها في مئزرها وانخرطت في البكاء ، وارتمت ميغ منهارة على كرسيها والدموع تسيل على خديها ، واتجهت جو إلى المكتب فتناولت البرقية ومضت إلى مكتب البريد .

حين عادت كان لوري ممسكاً برسالة تلقاها من السيد بروك يؤكد له أن صحة السيد مارش قد تحسنت ، فقرأتها جو وقد عاد إليها بعض هدوئها .

وسألها لوري :

– ما بك ؟ وكيف حال بيث ؟

– لقد أرسلتُ برقية إلى أمي .

– وهل قررت هذا وحدك ؟

– لا ، بل الطبيب طلب مني ذلك .

فاحمر وجهه حزناً وقال :

– حالتها خطيرة إذن !

وأطرقت جو برأسها فأسندها لوري إلى صدره وجعل يمسد شعرها بيده ويطمئنها بكلمات صادرة من قلبه والدموع تسيل من عينيه ، ولم يجد أبلغ من دموعه في هذا الموقف ، وهدأت جو بعد قليل فكفكفت دمعها وقالت :

– شكراً لك يا صديق ، الأمر فوق طاقتي كما ترى .

– أعرف ، ولكن المرء عرضة للمصائب ، وإني صديقك وتستطيعين الاعتماد علي ، فلا تجزعي .

قالت جو وهي تبتسم ابتسامة حزينة :

– شكراً لك يا لوري ، إنك صديق رائع ، ولن أوفيك حقك ما حييت .

– لقد احتطت للأمر وبعثت ببرقية إلى السيد بروك ، وسوف تصل أمك هذا المساء .

– كيف ذلك ؟

– لقد لاحظت أن حالة بيث تسير من سيئ إلى أسوأ ، وأجابني السيد بروك بأن أمك ستصل هذا المساء .

وتعلقت جو بعنقه وهتفت :

– آه يا أعز الأصدقاء ، لقد اشتقت إلى أمي .

واندفعت تضحك ضحكاً هستيرياً ، فأحس لوري بالحرج وحاول تهدئتها فقالت :

– اعذرني ، لقد أصبت بالجنون ، فالمصيبة أكبر من طاقتي .

قال لوري :

– لا بأس ، إن جدي قلق أيضاً ، ويرى أنه حان الوقت لعودة والدتك . ولن تسامحنا أبداً إذا بيث .. إذا حدث لها شيء ... وسوف تصل هذه الليلة بالقطار الساعة الثانية وسوف أنتظرها .

قالت جو وقد أمسكت رأسها بيديها :

– أسأل نفسي كيف أجزيك على معروفك .

– هذا واجبي .. فلا تجزني !

ورجع الفتى ليتغدى مع جده ، وأسرعت جو لتعلن نبأ عودة أمها ، وكانت حنة تظن أن هذا الفتى يتدخل فيما لا يعنيه ، ولكنه هذه المرة أحسن صنعاً ، وتنفست ميغ الصعداء ، على حين رقصت

جو فوق الأثاث من الفرح ، كانت بيث في أسوأ حالاتها ، لا تكاد تتنفس وقد انسد أنفها وتئن من وقت إلى آخر من بين شفتيها المغلقتين .

زارها الطبيب وقد ظهر الأسف على وجهه ، وأعلن أنه سيعود منتصف الليل لأن حالتها ستسوء أو تتحسن ، وسيعرف ذلك منتصف الليل ، وقد أخافهم كلامه جميعاً .

مساءً كانت حنة نائمة بعمق في كرسي مقابل سرير بيث ، ولوري متمدد على الأريكة في الصالون بانتظار الذهاب إلى المحطة ، وقد جاء جده وكان يتمشى جيئةً وذهاباً .

كانت ليلة لا تنساها الفتاتان . فحوالي منتصف الليل صعدتا إلى الطابق العلوي لتطمئنا على بيث .

حنة ما تزال نائمة وميغ تتلو الصلوات بصوت خفيض ، وبيث تتحرك في سريرها .

مضى لوري إلى المحطة دون أن يشعر به أحد ، وطالت غيبته ، فماذا حدث ؟ هل تأخر القطار ؟ هل آثرت السيدة مارش البقاء بجانب زوجها ؟

جلست جو تتأمل الطبيعة من النافذة ، وقد خيم عليها سكون الشتاء بثلوجه المتراكمة ، والتفتت فرأت ميغ راكعة تصلي قرب السرير ، فتجمد الدم في عروقها ، فهل ماتت بيث دون أن تدري ؟ لقد تحول لونها الأحمر إلى شحوب هادئ .

وتقدمت إلى السرير تقبل بيث وهي تتمتم :

– الوداع يا بيث .

وانقلبت دهشتها فرحة حين وجدت أن جبينها لم يعد بارداً بل هو دافئ ، وأطلقت جو صرخة فرح عالية أيقظت حنة من نومها ، فجست نبض المريضة وقالت :

– ما أكرمك يا رب ! لقد زالت عنها الحمى .

حينئذ قرع الباب ، ودخل الطبيب وسأل ملهوفاً :

– كيف حالتها ؟

وصرخت حنة :

– زالت عنها الحمى يا دكتور .

فانحنى عليها وسمع تنفسها وجس نبضها ثم ارتمى على الكرسي وتمتم : " لقد نجت " وكأنما زال عبء ثقيل عن كاهله .

وصافح السيد لورنس الذي صعد إلى غرفة بيث أيضاً وقد ظهرت الفرحة على الجميع .

بعد دقائق وصلت السيدة مارش يتبعها لوري ، فضمت الفتاة النائمة بين ذراعيها .

طلع النهار ، وكان الثلج يلمع تحت أشعة الشمس المشرقة .

الفصل الخامس عشر

وصية إيمي



أثناء هذه الأحداث المؤلمة ، كانت إيمي تعيش لدى العمة مارش حياة صعبة .

فالعمة لا تعرف المزاح ولا تتساهل مع الأطفال ولا تلهو معهم ، وترى ذلك مفسدة لهم ، وأدركت إيمي كم كانت مدللة في بيتها .

والعجيب أن العمة تفعل ما بوسعها لإرضاء إيمي ، وكان حبها للأناقة وحركاتها المتعالية تدخل السرور إلى قلب العمة ، وتقول لنفسها :

" هذه الفتاة حسنة التهذيب ، وقد ارتفعت مكانة ابن أخي في عينيّ لأنه ربى البنت بهذه الطريقة " .

سعت العمة أن تكون ظريفة مع إيمي . وذلك أن الفتاة كانت مذعورة في بداية الأمر ، فلا تنطق بغير كلمتي " نعم " أو " لا " جواباً على أسئلة العمة . وتطيع كل أوامرها ونواهيها . وظنت العمة أن من واجبها أن تهذب الفتاة تهذيباً تلقته هي منذ ستين عاماً ، مما سيخلق

نوعاً من التوازن في أسرة ابن أخيها الذي أهمل تنشئة بناته ، وتركهن ليذهب إلى الحرب التي لن يجني من ورائها سوى الموت .



وأول ما طلبته من الصغيرة ، لتقوِّم سلوكها أن تنهض باكراً فتغسل الأطباق ، وتلمع الفضيات وتغسل الكؤوس وتلمعها ثم تكنس قاعة الطعام ، وتمسح الغبار عن الأثاث المحفور ، وتعمد بعد ذلك إلى تنظيف قفص الببغاء وإطعامه ، ثم تمشط كلب " الكنيش " المترهل ، وتصعد عشرين مرة إلى الطابق العلوي تجلب شيئاً ما للعمة المقعدة تقريباً التي لا تكاد تغادر مقعدها .

وكان على إيمي أن تظل ساعة كاملة ساكنة بلا حركة لأن العمة تنام منذ قراءتها الصفحة الثالثة .

وأخيراً . بعد تناول شاي المساء تروي العمة للفتاة نوادر وحكماً مرعبة ، فتنام إيمي وهي تبكي خوفاً .

أما لحظات السعادة التي تنتظرها إيمي فهي حين يأتي لوري وفاءً بوعده ليصحبها إلى النُزهة ، ولولاه ومساعدة الخادمة " إستر " لما استطاعت إيمي أن تتحمل هذه الإقامة .

وإستر فرنسية الأصل تعيش مع " المدام " كما تسمي العمة – منذ سنوات طويلة – وهي التي تفرض آراءها وتصرفاتها على العمة ولا تبالي بها ، وقد عقدت إستر صداقة مع إيمي ، فكانت تروي لها حكايات مسلية عن حياتها في فرنسا وهي البلاد التي يأكل الناس فيها

أشياء غريبة كالضفادع والحلزون ، وتفتح لها غرف البيت العديدة لتتفرج على ما جمعته العمة من تحف تحرص على ألا يراها أحد .

من ذلك الملابس التي كانت ترتديها العمة وهي صبية ، والجوهرات التي أهداها إليها والدها ، وخاتم الخطبة الذي قدمه إليها زوجها ، ولا تستطيع وضعه في أصبعها الآن لإصابتها بالروماتيزم .

وكم تاثرت إيمي لرؤية الثياب التي كانت ترتديها ابنتها الصغيرة قبل موتها !

وتحسرت إيمي على هذه التحف الثمينة وقالت :

– ما أجملها ؟ ولكن لا أحد يستخدمها !

فقالت إستر :

– ستكون لك ذات يوم ، ستتركها العمة بعد موتها لك ولأخواتك .

– أتظنين ذلك ؟

– هذا أكيد و" المدام " قالت لي هذا وكنت شاهدة على وصيتها ، وأظنها سوف تهديك خاتمها العقيق حين تعودين إلى البيت ، لأنها راضية عن سلوكك .

فامسكت إيمي بالخاتم وجربته على إصبعها وقالت وقد تورد خداها :

– حقاً ! إني أحب العمة مارش .

منذ تلك اللحظة عزمت إيمي على أن تترك لدى العمة الانطباع بأنها فتاة مهذبة مطيعة ، مما أدخل البهجة على قلب العمة ، وهنأت نفسها على نجاحها في منهجها التربوي .

ولكن خطرت لإيمي فكرة رائعة وهي أن تقلد العمة وتكتب وصيتها حتى تعرف أخواتها أنها لم تنسهن أثناء حياتها ، ووافقت الخادمة إستر على تنفيذ هذه الفكرة . وبدت إيمي أشد حرصاً من العمة على ممتلكاتها ، وساعدتها إستر على صياغة بعض العبارات القانونية ، ووقّعت كشاهدة على وصيتها .

طوت إيمي وصيتها بعناية وقد عزمت على أن تطلع لوري عليها .

وكانت إستر تسمح لها باللهو في الطابق العلوي ، وأذنت لها بارتداء ثياب عمتها القديمة على ألا تفسدها ، فوقفت إيمي أمام المرآة مرتدية ثوب عمتها القديم ذا الأذيال الطويلة .

على حين فتح الباب وأطل لوري برأسه ، فرآها تتبختر بثوبها الطويل وقد وضعت على رأسها قبعة انغرست فيها ريشات طاووس ، فانسحب بهدوء يكتم ضحكه ثم سعل يعلن عن قدومه ، وطرق الباب لئلا تحس الفتاة بأنه يتجسس عليها .

قالت إيمي بلهجة مترفعة :

– آه هذا أنت ؟ تفضل بالجلوس يا عزيزي حتى أبدل ملابسي ، لدي قضية هامة أريد أن أستشيرك فيها .

ثم اختفت وراء الحاجز وقالت :

– اقرأ هذه وأعطني رأيك فيها ، وانتبه خاصة إلى الناحية القانونية منها ، فالحياة شيء عابر ولابد للإنسان أن يحتاط لموته كما احتاط لحياته .

تناول لوري الورقة ذاهلاً ، فقرأها وهو يغالب ضحكه ، إذ أن إيمي جادة في كلامها ولا يريد أن يجرح شعورها ، وقرأ الوصية بصعوبة لكثرة أخطائها النحوية .

" هذه آخر رغباتي أنا الموقعة أدناه إيمي كورش مارش وأنا سليمة القوى الجسمية والعقلية :

إلى بابا لوحاتي ورسومي والمئة دولار يفعل بها ما يريد .

إلى ماما كل ملابسي ما عدا مئزري الأزرق ذا الجيبين وكذلك صورتي الشخصية .

إلى أختي مرغريت خاتم العقيق (إذا أهدته لي العمة مارش) وقطعة الدانتيلا لتصنع منها ياقة جديدة .

إلى جو محبرتي البرونز وآمل أن تجد غطاءها المفقود ، وأورثها كذلك أرنبي المصنوع من الجبصين تعويضاً لها عن مخطوطاتها التي أحرقتها .

إلى بيث خُفي الجديد ودُماي ومكتبتي ومروحتي .

إلى صديقي وجاري تيودور لورنس (المدعو لوري) حصاني الخزفي الذي فقد رأسه ، وله أن يختار ما يشاء من لوحاتي عربون صداقة "

وأورثت " السيد المحترم لورنس " المقلمة الحمراء ، وأورثت حنة علبة القبعات التي تشتهيها ، وأورثت أحسن صديقاتها كيتي بريان مئزرها الأزرق ذا الجيبين إذا تخلت أمها عنه . وختمت وصيتها بقولها :

" وآمل بذلك أن أكون قد أرضيت الجميع ، فلا يلومون المتوفاة البائسة ، ولعل الله يجمعنا يوم ينفخ في الصور وتقوم القيامة .

حرر بتاريخ سنة 1861 وشهد عليها إستر فالنور و تيودور لورنس "

قرأ لوري هذا النص وقد علته الكآبة ، ورأى أنه سيؤذي الصغيرة إيمي إذا ظهرت عليه ملامح السخرية ، فقرر أن يوقع عليها مما أدخل السرور إلى قلبها ، وقال لها وهو يختم الوصية بالشمع :

– قولي لي يا إيمي من أوحى لك بهذه الفكرة ؟ ألأن بيث قد وزعت أشياءها ؟ ومن نقل إليك هذه الحادثة ؟

فسألته إيمي :

– وهل وزعت بيث حوائجها ؟

فعض لوري على شفتيه ولكنه تابع قوله :

– حين أحست بثقل المرض عليها وهبت لميغ البيانو ووهبتك قططها ووهبت دميتها القديمة لجو ، وتركت خصلة من شعرها لكل واحدة منكن وهي آسفة لأنها لا تملك سواها .

فقالت وقد قطبت حاجبها :

– حقاً ، لقد نسيت شعري ، ألا يمكن إضافة فقرة إلى الوصية كملاحظة ؟

– طبعاً .. طبعاً .. هذا ممكن .

– إذن أضف هذه الفقرة ، واذكر فيها أني أهب خصلة من شعري لكل واحدة ، وإن كنت سأبدو بشعة فهذا لا يهم لأني سأكون ميتة .

وأضاف لوري هذه الفقرة التي كانت تضحية عظيمة من إيمي .

وسألته :

– هل ستموت بيث ؟

– لا ، إن الطبيب بجانبها على الدوام .

ذلك المساء . ركعت إيمي وقد ضمت يديها تدعو إلى الله أن يحفظ لها أختها ، والدموع تسيل على خديها .

الفصل السادس عشر

البوح بالأسرار



كان سكان البيت جميعاً قد أرهقتهم الأيام الماضية ، ولكنهم يبتسمون فرحاً بقدوم السيدة مارش ، وحين فتحت بيث عينيها رأت وجه أمها السمح العطوف فتعلقت بها وجلست في حجرها وأمسكت بيديها طول النهار ، وهمست لها الأم كلمات الحنان ، وأبلغتها أن أباها يتماثل للشفاء ، وقد بقيَ السيد بروك بجانبه يرعاه ، وحكت الأم لبناتها ما لاقته في رحلتها من مشقة ، وكيف أن الثلوج تراكمت فأعاقت القطار من الوصول في الوقت المحدد ، وكم كانت فرحتها شديدة وهي ترى وجه لوري يبتسم لها من وراء الزجاج في محطة القطار .

في الخارج كان الجو رائعاً والشمس مشرقة تذيب الثلوج عن الأسطحة . وقد تكفل لوري على الرغم من تعبه الشديد أن يذهب لإيمي ويطمئنها .

كانت إيمي تتمنى أن تخرج لتتمشى على هذا الثلج وتسلّم على أمها ، ولكن عيني لوري لا تنفتحان من النعاس ، فطلبت منه الانتظار لتكتب رسالة إلى أمها .

وتأخرت في كتابة الرسالة ، وحين عادت إليه وجدته نائماً على الكنبة ، فتركته ، وما كادت تفعل حتى أطلقت صرخة فرح أيقظته ، إذ أن أمها جاءت إلى بيت العمة لتسلم عليها وعلى ابنتها طبعاً .

بعد لحظة كانت إيمي أسعد فتيات الدنيا ، جالسة في حجر أمها تروي لها بصوت خفيض ما تقاسيه لدى العمة مارش ، ونظرت الأم إلى إصبع إيمي وسألتها :

– ما هذا في إصبعك ؟

فأرتها إيمي الخاتم وقالت :

– أعطته لي العمة مارش ، ونسيت أن أذكر لك ذلك .

لقد نادتني وقبلتني وقالت إنها فخورة بتربيتي ، وألبستني هذا الخاتم ، إنه رائع أليس كذلك ؟

قالت السيدة مارش مبتسمة :

– نعم وهذا مدهش ، ولا بد أنك كنت عاقلة طيبة مطيعة ، ولكنك ماتزالين صغيرة على وضع الحلي .

– سألبسه تذكاراً من العمة ، ولن أكون مغرورة بعد الآن .

– أحسنت يا بنيتي ، ولكن يجب أن أرجع إلى البيت لأبقى بجانب بيث ، ستعودين إلى البيت قريباً .

ودعت السيدة مارش العمة التي أثنت على أخلاق إيمي ونصحت أمها بأن تواظب على استعمال الشدة معها ، ولم تجبها السيدة مارش . .

ذلك المساء ، حينما كانت ميغ تكتب إلى أبيها رسالة تنقل إليه أنباء البيت ، طرقت جو على باب غرفة أمها ووقفت وهي تعبث بشعرها القصير ، وسألتها الأم :

– ما بك يا عزيزتي ؟

– لي معك حديث .

– عن أي شيء ؟

– بخصوص ميغ .

فحدقت بها الأم وقالت :

– ما بها ميغ ؟



– تذكرين يا ماما أن ميغ قد نسيت في الصيف الماضي فردة قفازها لدى عائلة لورنس ولم تجد سوى فردة واحدة ، وذكر لي

لوري أن السيد بروك قد احتفظ بها ، وهو يحملها في جيب سترته ، وقد رآها لوري فمازح السيد بروك حول هذا الموضوع .

فاعترف له بأنه يحب ميغ ولكنه لا يجرؤ على الاعتراف لها بذلك لأنها صغيرة جداً وهو فقير جداً .

وسألتها السيدة مارش بعد تفكير :

– وهل تنظر إليه ميغ بعين الرضا ؟

– لا أعرف شيئاً عن الحب وقضاياه السخيفة .

– اخفضي صوتك ، بيث نائمة .

قالت جو :

– كل ما أعرفه في الروايات أن البنات يُغمى عليهن وترتفع نبضات قلوبهن وتحمر خدودهن على الدوام ويمتنعن عن الطعام ، ولم ألاحظ على ميغ هذه الأعراض ، فهي تأكل وتشرب وتنام مثلنا تماماً ، وهي تحمر قليلاً حينما يمازحها لوري بشأنه .

– تظنين إذن أن ميغ تفكر بجون ؟

– ومن جون هذا ؟

– هو اسم السيد بروك ، وتعودت أنا وأبوك على مناداته باسمه هذا ، وكان شديد الإخلاص لنا .

قالت جو :

– أنت في صفه إذن ؟ لقد تظاهر بالإخلاص لكي يتزوج ميغ ، لا أظنك غافلة عن هذا .

فقالت الأم :

– اهدئي يا جو . إن السيد بروك قد رافقنا لأن السيد لورنس قد كلفه بذلك ، ونشأت بيننا صداقة ، ولم يخف علي إعجابه بميغ ، ولكنه ينتظر أن يحسن مركزه ليكون لائقاً بفتاة مثلها ، إنه ممتاز لا يخفي علي شيئاً ، ولكن ميغ ما تزال صغيرة .

فقالت جو :

– لا أريد أن تفارقنا ميغ ، يجب أن نبقى مع بعض .

فضحكت الأم وقالت :

– لك طريقة غريبة في التفكير ، ولكن لا تقولي شيئاً لأختك .

قالت جو :

– لا أظنها تكرهه ، وقد قرأت رسائله مرة تلو المرة .

قالت الأم :

– إن ميغ لم تكد تبلغ السابعة عشرة ، وجون يلزمه سنوات ليؤسس بيتاً ملائماً .

– أليس من الأفضل أن تتزوج رجلاً غنياً ؟

– المال ضروري جداً في الحياة ، ولا أريد لبناتي أن يحتجن إليه ، ولكنه ليس كل شيء في الحياة .

– ولكن لماذا يكبر الناس ؟

فدخلت ميغ وقالت :

– وهل تريدين للناس أن يظلوا صغاراً ؟

فضحكت الأم وقالت لميغ :

– ماذا تريدين ؟

– اقرئي هذه الرسالة لبابا .

– أضيفي تحياتنا لجون .

– أتدعين السيد بروك باسمه جون ؟

– نعم ، لقد ألفناه في واشنطن ، وكان عظيم الفائدة لنا .

– حسناً كما تريدين .

الفصل السابع عشر

فكرة سيئة يقترحها لوري



لاحظت ميغ أن جو مشغولة بأمر ما ، ولكنها لا تريد أن تبوح به ، وقد اعتادت ميغ ألا تسألها عن شيء لأنها ستبوح به من تلقاء نفسها ، وحين جاء لوري لاحظ أن جو تخفي عنه أمراً أيضاً ، ولكنه ما زال يستدرجها بأسئلته حتى علم أنها قد أفضت إلى أمها بسر إعجاب السيد بروك بميغ ، وغضب لوري لأن جو تحتاط منه وهو أول من اكتشف هذه العاطفة الناشئة بينهما ، وقرر أن ينتقم من جو .

وعُلم بعد أيام أن السيد مارش سيعود إلى بيته ليستكمل نقاهته ، فانصرفت ميغ إلى الإعداد لعودته ، ولكنها انقلبت انقلاباً تاماً ، فقد غدت شاردة الفكر ، تقضي ساعات وساعات في الخياطة دون أن تنتبه إلى عملها ، وحين سألتها جو عما بها ، رجتها أن

تتركها وشأنها ، وأفضت جو إلى أمها بما رأته من انقلاب في تصرف أختها وقالت :

– إنها لا تنام الليل ولا تكاد تتناول الطعام ، وإذا ذكر اسم جون أمامها احمر وجهها ، وهذا لا يبشر بخير .

قالت الأم :

– لا تخافي ! ولكن لا تهتمي بها ، وحين يعود أبوك سوف تتحسن الأحوال .

من الغد وصلت رسالة إلى ميغ فقرأتها ثم انخرطت في البكاء .

وسألتها أمها :

– ما بك يا بنيتي ؟

قالت :

– ليس هو مرسلها ، آه يا جو كم أنت قاسية !؟

فذهلت جو وسألتها :

– أنا ؟ وما علاقتي بهذه الرسالة ؟

فنظرت ميغ إلى أختها نظرة حاقدة وقالت :

– كاذبة ! لم يكتب هذه الرسالة إلا أنت أو ذلك الفتى السخيف ، وأحدكما أسوأ من الآخر .

ورمت إليها الرسالة .

وقرأها جو .. كانت مكتوبة بخط غريب ، ترجو " الحبيبة ميغ " أن تكتب رسالة إلى " جون " المعذب ، وترسلها عن طريق لوري ، فرمتها جو ونهضت غاضبة وقالت :

– سآتي بهذا الخبيث إلى هنا كي يعتذر منك .

وسألتها أمها :

– هل أنت متأكدة أنك لست ضالعة معه في هذه الحكاية ؟

فاشتد غضب جو ثم انقلب غضبها سخطاً وقالت معاتبة أمها :

– وهل تشكّين في حبي لأختي يا ماما ؟ وهل تحسبينني أكتب مثل هذا السخف ؟

فقالت ميغ من خلال دموعها :

– ولكن هذه الرسالة تشبه رسالته السابقة .

وقارنت هذه الرسالة بورقة جذبتها من جيبها .

– ماذا ؟ معك رسالة أخرى ؟ لقد كتبتِ إليه إذن ؟

– لا ، بل أجبته فقط .

ووضعت وجهها بين كفيها منتحبة .

قالت الأم :

– احكي لي كل شيء بصراحة .

وأمسكت جو تمنعها من الانطلاق إلى لوري .

فقالت ميغ :

– إن لوري الذي أعطاني رسالة جون الأولى ، ولم يكن يبدو عليه أنه يعرف شيئاً ، وقد أردت أن أكلمك عنها ، ولكن وجدت أنه لا مانع من الرد عليه خاصة وأنك تعاملينه بامتنان واحترام ، والآن لا أجرؤ على النظر إليه .

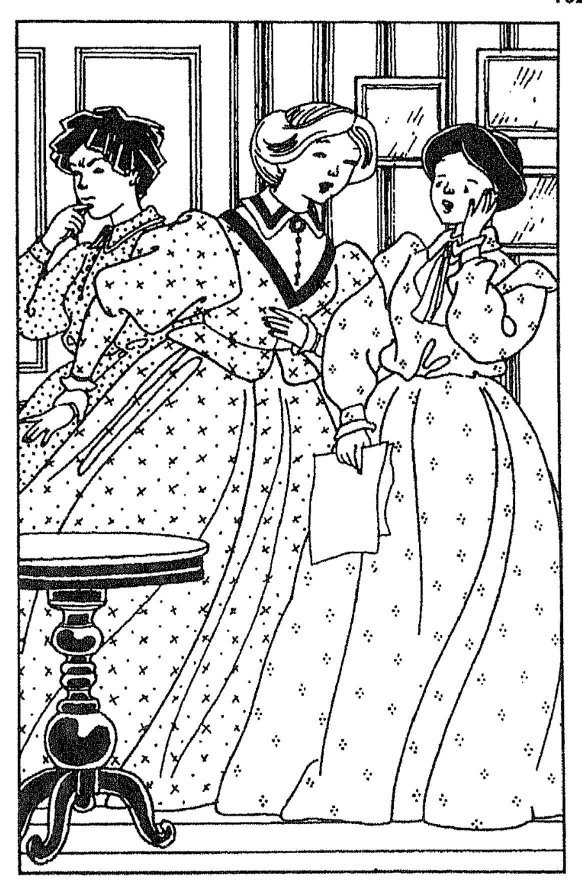
قالت الأم :

– لا تقولي هذا ، ماذا كتبت في ردك عليه ؟

– قلت له إني ما أزال صغيرة ، وإنه ينبغي له أن يكلم أبي أولاً ، وإني سأبقى صديقة مخلصة له .

فقالت الأم وهي تبتسم وتربت على شعرها :

– أنت شديدة الحذر يا ميغ ، وهذا الرد ملائم ، فهل هذه الرسالة جوابه لك ؟



– لا ، لقد بعث إلي رسالة الأسبوع الماضي يقول فيها إنه لم يكتب إلي من قبل ، ويظن أن أختي جو قد قامت بهذا المزاح ، ولا أظنك تفعلينها يا جو ، ولكنه مزاح ثقيل .

أخذت جو الرسالتين وقارنت بينهما ثم قالت :

– أظن أن لوري الخبيث أراد أن ينتقم مني لأني لم أطلعه على السر .

فقالت ميغ :

– لا يجوز أن يكون لنا أسرار ، أرأيت النتيجة ؟

وتدخلت الأم بحزم :

– لا تبكي يا ميغ ، وأنت يا جو اذهبي إلى لوري واطلبي منه الحضور فوراً ، يجب أن تتوضح المسألة وينتهي المزاح .

وخرجت جو مسرعة ، على حين جلست السيدة مارش تستفسر ميغ عن عواطفها ، فأظهرت خجلها وطلبت من أمها ألا تفاتح السيد بروك بهذا الموضوع ، فوعدتها بذلك .

ما إن فتح الباب وظهر لوري ومعه جو ، حتى مضت ميغ إلى غرفتها ولم تغادرها ، وطلبت الأم من جو أن تتركها مع لوري الذي أدرك الموضوع ظاهراً على ملامح الأم .

أما المحادثة التي جرت بين السيدة مارش ولوري فلم تعرف مضمونها جو ولا ميغ ، ولكن حين نادتهما كان يبدو عليه الأسف .

قدّم لوري إلى ميغ اعتذاراته وأكد لها أن السيد بروك يجهل كل شيء عن هذه الدعابة ، ووعدها بألا يعود إليها . فسامحته ميغ فوراً ، وعادت الابتسامة تغمر وجه السيدة مارش ، وظلت جو عابسة الملامح ، وحاول لوري استرضاءها فلم تستجب له ، فغادر البيت دون أن يودعها .

بعد دقيقة أسفت جو لأنها كانت قاسية على لوري ، ولم تقل له كلمة طيبة تخفف عنه مهانته ، فتناولت كتاباً قد استعارته من السيد لورنس ، وادعت أنها ستعيده وتوجهت إلى المنزل المجاور .

سألت الخادمة :

– هل السيد لورنس هنا ؟

– نعم ، ولكن لا أظنه يستقبل أحداً اليوم .

– هل هو مريض ؟

وكانت الخادمة تعطف على جو فقالت :

– لا .. ولكنه تشاجر مع لوري الذي كان متعكر المزاج ولا أجرؤ على إزعاجه .

- ولوري ، هل هو هنا ؟

- لا يخرج من غرفته ، وكذلك السيد لورنس ولم يتناولا الغداء الذي أعددته لهما .

قالت جو :

- هذا مؤسف ، سأحاول رؤية لوري .

فصعدت وطرقت باب لوري بإصرار حتى فتحه ، فاندفعت كالقذيفة فسقطت أمامه على ركبتيها وقالت بلهجة ملتاعة :

- لقد خاصمتك ، فسامحني ولنتصالح .

فقال لوري :

- كفّي عن حماقاتك وانهضي فهذا سخيف .

ونهضت وقالت له :

- ماذا حدث لك ؟

- لقد رفضت أن أخبر جدي بما حدث ، لقد وعدت أمك وميغ أن أحتفظ بهذا السر ، ولكنه أصر على معرفة الحقيقة فسكتُّ فأغضبه سكوتي حتى أمسك بسترتي وهزني بعنف ، قد أقبل مواعظه حين أكون مخطئاً ، ولكني لا أقبلها حين أكون على حق ، لقد طفح الكيل .

– ولكن جدك لا علم له بشيء لأنك لم تقل له ، وسوف يأسف حين يعرف الحقيقة ، لماذا لا تتنزل وتتصالح معه ؟

– لن أفعل ، لأن عليه أن يثق بي ولا يعاملني كأني طفل صغير .

قالت جو :

– ما هذه العائلة ؟ وهل تتوقع أن يعتذر جدك إليك ؟

– تماماً ، أريده أن يعتذر مني ، وأن يثق بكلامي في مستقبل الأيام .

– اسمع ، سأحاول أن أشرح له الأمر قدر طاقتي ، ولكن لا تبق حبيس غرفتك .

– طبعاً ، سأمضي إلى واشنطن وانضم إلى بروك .

– يا لها من فكرة !

– ولِمَ لا تأتين معي ونفاجئ والدك ؟ سنترك لهم رسالة لئلا يقلقوا علينا ثم نسافر ، ومعي ما يكفي من المال للمصاريف .

رمقته جو برهة بإعجاب ، وكانت مستعدة للذهاب ، فيالها من مغامرة ! ثم تغلب عليها حسها السليم فهزت كتفيها وقالت :

– لو كنت صبياً لوافقت في الحال ، ولكني فتاة ، ولعلك لا تجهل هذا ، وإذا اعتذر إليك جدك ، فهل تقلع عن الذهاب ؟ نعم أم لا ؟

– نعم بالطبع ، ولكنك لن تنجحي في إقناعه ، إنه عنيد كالبغل .

– وهذا أمر متوارث في العائلة كما أرى .

وتركته يتفحص نشرة مواعيد القطارات ومضت إلى جده ، فلئن نجحت في تهدئة الحفيد فهل تنجح في مداورة الجد ؟

قال السيد لورنس بلهجة مرحة :

– هذه أنت يا جو ؟ أي ريح طيبة ساقتك إلينا ؟

قالت جو :

– جئت أعيد إليك الكتاب .

– وهل تريدين غيره ؟

وحاول الرجل أن يخفي انزعاجه ولكنه لم يفلح . فقالت له :

– أتمنى أن أقرأ الجزء الثاني من مغامرات سام .

وكان هذا كتاباً اقترحه عليها ، فأظهرت له اهتمامها بآرائه وجلست تتساءل كيف تبدأ المحاورة ، ولكنه تولى عنها هذه المهمة فقال :

– لا بد أن هذا الولد الطائش قد ارتكب حماقة ، ولكنه لا يريد أن يطلعني عليها ، قولي لي بصراحة ماذا فعل ؟

قالت جو :

– إنه اطلع على سر لا ينبغي له ، ولكننا سامحناه ووعدنا بألا يعرفه أحد .

– نعم ، لقد استغل ملاطفتكم له لكي ينتزع هذا الوعد منكن ، ما هذا السر إذن ؟

قالت جو :

– اعذرني يا سيدي ، لقد منعتنا والدتنا من الكشف عنه وقد نسيناه ، وقد أقر لوري بذنبه وطلب الصفح عنه ، ووعدناه بألا نبوح به لا لكي نحميه هو بل لنحمي شخصاً سواه .

فسكت السيد لورنس برهة ثم قال :

– حسناً ، ولكن طمئنيني بأن لوري لم يكن فضولياً أو ناكراً للمعروف .

قالت جو :

– لقد قام لوري بدعابة بسيطة ، هذا كل شيء .

والحت إلى القضية إلماحاً دون أن تبسط له تفاصيلها .

فقال :

– في هذه الحال ، يجب عليه أن يفي بما وعد ، وقد أصفح عنه .

إن السيد لورنس تجاوز سن الشباب ، ولكنه يفهم الأمور بسرعة مذهلة ، وسأل :

– هل أنت متأكدة أنه لم يؤذ أحداً أذًى لا صلاح له !

– متأكدة ، بل لست نادمة على ما فعل .

– إنه عنيد ، شديد العناد .

– نعم .. واسمح لي أن أقول إنه ... إنه يبالغ أحياناً .

– ولا أدري كيف ينتهي بنا الحال إذا استمر عليه .

فقالت جو بحزم :

– سيمضي .. سيغادر المكان بكل بساطة .

فشحب لون السيد لورنس وهو يقول :

– كيف ؟ ماذا تقصدين ؟

فاضطربت جو إذ رأت شفتي الرجل الهرم ترتجفان :

– لا أظنه يفضل الرحيل ، ولكن حين يعامل وكأنه طفل صغير فهذا يزعجه ، وعساك تعامله بشيء من الثقة ، وأنا أيضاً أود الرحيل ، فإذا افتقدت شابين فاعلم أننا تطوعنا في البحرية .

وضحكت وهي تقول هذا ، فزال الجزع عن السيد لورنس وقال :

– أنت على صواب ، لا ريب في هذا ، إن جيل هذه الأيام لا يساوي شيئاً فتياناً وفتيات ، ولكن لا غنى لنا عنكم ، هيا يا صغيرتي .. اذهبي ونادي هذا الأحمق لوري وقولي له إن القضية قد حسمت ، ولكن أنذريه أني لا أحب أن يقوم بمسرحية درامية أمامي ، لم أعد احتمل حركاته ولا أطيق حماقاته .

فقالت جو بحذر :

– أظنه .. أظن لوري غاضباً جداً .

فدمدم الشيخ غاضباً :

– ماذا يتوقع مني ؟ هل يتوقع أن أعتذر إليه ؟



فاجابته جو بجرأة :

- نعم يا سيدي .. ولكن ..

فسيطر الغضب على السيد لورنس وصاح :

- ماذا ؟ سأذهب إلى هذا الأحمق وأشد أذنيه .

فقالت جو مستبسلة :

- لحظة يا سيدي ، لعل لدينا وسيلة أخرى ، هي أن تكتب له اعتذاراً مبالغاً فيه حتى يفهم أنك تسخر منه .

فأعجبت الفكرة السيد لورنس وقال :

– حسناً .. هاتي ورقة وقلماً .

وكتب عدة جمل اعتذاراً بأسلوب بلاغي قديم ، فحملت جو الورقة ودستها تحت باب غرفة لوري ، وما كادت تفعل حتى فتح الباب والطلق إلى جده يحتضنه بين ذراعيه .

وهكذا انتهى ذلك الشجار الرهيب .

الفصل الثامن عشر

عيد مختلف عما سواه



جاءت الأيام التالية كأنها الجو الصافي بعد الأمطار والعواصف ، فقد تحسنت صحة بيث ، وبشرت رسائل السيد مارش بتماثله للشفاء وقرب عودته ، وهو يأمل أن يكون بين عائلته مطلع شهر كانون الثاني ، وكانت بيث من الضعف بحيث اضطرت جو إلى حملها بين ذراعيها وهي ملتفة بالأغطية ، لتجلسها على مقعد في الحديقة تعرضها لأشعة الشمس الناحلة ، ونسيت ميغ جمال يديها وجعلت تطهو لأختها وجبات لذيذة . وأما إيمي فقد كانت أسيرة وصيتها ، وسعت دون جدوى أن توزع حوائجها فلم يقبلها أحد ، واحتفظت بخاتم العقيق . وكانت الابتسامة لا تفارق مُحيّا السيدة مارش وهي تدندن بالأغاني طول النهار .

لقد عادت السكينة إلى البيت باقتراب عيد الفصح .

كان لوري وجو يناقشان التحضير له مثل : الأسهم النارية والديوك الهندية المحمرة والزينات .

قبل عدة أيام من العيد أصبح الطقس جميلاً ، وأعلنت حنة أن هذا الطقس سيدوم لأنها لا تحس بآلام المفاصل ، وكأنها تتنبأ بالأحوال الجوية .

صباح العيد كان رائعاً ، وقد نهض لوري وجو الرابعة صباحاً وصنعا في الحديقة رجلاً ضخماً من الثلج ، ووضعا جزرة مكان أنفه وهو يدخن الغليون ويحمل الهدايا لبيث التي انفجرت ضاحكة وقالت :

– آه لو كان أبي هنا .. هذا ما ينقصني !

وقالت جو :

– وأنا أيضاً .

وقالت ميغ :

– إنها أمنيتي أيضاً .

ولم تقل السيدة مارش شيئاً ، بل كانت تقرأ وتعيد الرسالة التي بعثها إليها زوجها ، وعلى شفتيها ابتسامة غامضة .

حوالي الظهر جاء لوري وقال بصوت لاهث :

" هدية للعائلة من الدكتور مارش " .

في هذه اللحظة وقف بالباب شخص طويل القامة يستند إلى آخر أقصر منه . فانطلقت من أفواه البنات صرخة واحدة : " بابا " إنه الدكتور مارش يستند إلى ذراع جون بروك .

وكاد الأب يختنق من قبلات بناته ، على حين كانت الأم تبكي وتضحك بآن واحد ، وعانقه لوري ، وعانق بروك ميغ في غمرة الفرحة الشاملة ، وأما حنة فعانقت الحضور دون استثناء ، وسالت دموعها على الديك الهندي الذي ضمته إلى صدرها .

حين هدأت العاصفة ، شكرت السيدة مارش بروك على ما أسداه إليهم من خدمات ، حينئذ تذكر بروك أن الدكتور مارش يحتاج إلى الراحة ، وأن عليه مقابلة السيد لورنس وانصرف وهو يجذب معه لوري .

لم تر العائلة عيداً يماثل ذلك العيد ، وقد أبدعت حنة في إنضاج الديك الهندي وتزيينه ، وكانت الحلويات والمشروبات تزيد هذه المائدة متعة وبهجة ، وضحكوا وحكوا الحكايات ، ونصّبوا حنة على طهاة الديوك الهندية ، وطلبوا منها أغنية ، فنهضت ورفعت صوتها الأجش بالغناء ، وكانت أغنية تراثية علمتها للبنات ورافقنها

كالجوقة ، على حين تعزف بيث على البيانو . وأما السيد لورنس ولوري وبروك الذين دُعوا إلى العشاء فقد انصرفوا مبكرين ، وكانت جو لا تتوقف عن رشق بروك المسكين بنظراتها ولوري يضحك باستمتاع . وحين بقيت العائلة وحدها قالت جو :

– يا له من تغير رائع . كم بكينا في العام الماضي على حظنا العاثر !

فقالت إيمي وهي تنظر إلى خاتمها العقيق :

– كانت سنة صعبة .

وقالت ميغ :

– ولكنها انتهت نهاية سعيدة .

وافتخرت لأنها عاملت السيد بروك بكبرياء تليق بفتاة مهذبة .

وقالت بيث وهي مستندة إلى ركبة أبيها :

– أحمد الله لأنها انتهت على خير .

قال الدكتور مارش :

– نعم ، كانت سنة صعبة وخاصة في نصفها الثاني ، ولكنكن حسنتن التصرف .

قالت جو :

– هذا رأيك يا أبي ؟ شكراً لك إذن .

قال الدكتور مارش وهو يبتسم لابنته ذات المنكبين العريضين :

– هذا أكيد .. والدليل على ذلك أني افتقدت " الصبي جو " لأجد مكانه الفتاة جو التي لا تقفز من النافذة ولا تمشي كالصبيان ، ولكنها تنشر حكاياتها في الجرائد ، ولعلني أحن إلى ذلك " الصبي " ولكن الله عوضني بفتاة قلبها أوسع من منكبيها ، ولم أجد في واشنطن كلها شيئاً يستحق الشراء بالخمسة والعشرين دولاراً التي أرسلتها إليّ .

احمرت جو من المديح ، وإن كانت تعتقد في أعماقها أنها جديرة به ، وتابع الدكتور مارش قائلاً :

– ولاحظت أن يدي ميغ البيضاوين قد أصابتهما الخدوش لأنها تمارس أشغال المنزل ، وآمل أن تستمر عليها ، وأما بيث فليتها لا تخجل من كلامي ، فإنها أشد خجلاً مما سبق . وضمها إلى صدره وقد تذكر أنها كانت بين الموت والحياة :

– ولكننا شفينا معاً يا بنيتي ، ولن يفرق بيننا شيء مدى الحياة بمشيئة الله .

ولم تجد بيث من جواب سوى أن تدس رأسها في صدر والدها وتنفجر بالبكاء .

واستمر الدكتور مارش قائلاً :

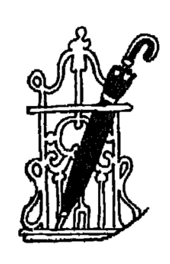
– وأما إيمي فقد لاحظتُ أنها لم تخطف أحسن قطعة من ديك الهند ، وأنها ساعدت حنة وأدت إلى أمها خدمات صغيرة طول النهار دون أن تشكو ، وزيادة على ذلك فهي لم تُرني خاتمها الجميل الذي أعرفه منذ طفولتي .

فتأكدت أنها قد استطاعت السيطرة على عواطفها والتحكم فيها كما تتحكم في الصلصال الذي تصنع منه دُماها .

فكادت إيمي تطير فرحاً .

وبكى الجميع حين ارتفع صوت ميغ بأغنية من أغاني العيد وبيث ترافقها بعزفها على البيانو .

الفصل التاسع عشر
تدخُّل العمة مارش



من صباح الغد كانت السعادة ترفرف على عائلة مارش ، ولا يقلقها سوى شيء يسير هو أن السيد بروك قد نسي مظلته ، وظنت جو أنها ذريعة ابتكرها ليزورهم من جديد ، وكانت ميغ تطرز غطاء سريرها وهي سارحة مع أحلامها ، والسيد والسيدة مارش يرقبانها من طرف خفي .

وحوالي الساعة الثانية كانت جو وميغ وحدهما في القاعة حينما قرع الباب : إنه السيد بروك . واحمر وجه ميغ احمراراً شديداً ، وفتحت جو الباب بحركة عدوانية . قال السيد بروك باستحياء :

– صباح الخير ، لقد .. لقد نسيت مظلتي وجئت لآخذها ، واسأل عن صحة الوالد .

قالت جو :

– حسناً ، المظلة في مكانها ، وسوف أعلم والدي .

ثم انطلقت مسرعة ، وتحركت ميغ بخجل وتمتمت :

– ستسر أمي لرؤيتك ، سأخبرها أيضاً .

فظهر الحزن على السيد بروك واستوقفها قائلاً :

– لماذا تنصرفين يا مرغريت ؟ هل أنت خائفة مني ؟

واحمرت ميغ حتى أذنيها ، فهذه أول مرة يناديها مرغريت بصوته الرقيق ، وهي تطرق برموشها :

– لا ، طبعاً ، لقد كنت عطوفاً على أبي ، ولا أدري كيف أشكرك .

ولكي تبرهن له على أنها لاتخاف منه مدت إليه يدها وصافحته .

فأمسك يدها وقال لها بصوت مختنق :

– لا أريد أن أزعجك يا مرغريت ، ولكن أريد أن أعرف إن كانت .. أعني .. كيف هي عاطفتك نحوي ؟ لأنك تعرفين يا مرغريت أني أحبك .

وابتلع ريقه بصعوبة ، وقالت ميغ وقد سيطر عليها الذعر :

– لا أدري ما أقول ! .

وكانت قد تخيلت هذه اللحظة آلاف المرات ، وأعدت لها خطاباً واضحاً بليغاً ، ولكنها لم تستطع أن تذكر منه شيئاً ، فهمست ذاهلة :

– إني ما أزال صغيرة .

فقال لها السيد بروك واهاً :

– سأنتظر ، ولعلك تتعرفين علي أثناء ذلك ، وربما أحببتني أيضاً ، فهل هذا شيء عسير ؟

فقالت :

– قد أستطيع التعرف ..

ثم استدركت وجذبت يدها من يده :

– لا أريد التعرف يا سيد بروك ، وأرجوك أن تترك يدي !

فشحب وجه بروك البائس ، ووجدت ميغ أنه يشبه أبطال الروايات ، غير أنه لا يمشي بخطوات واسعة ، ولا يضرب رأسه بالحائط ، ولا يستل خنجره لينتحر به أو يرمي بنفسه من أحد الأبراج ، وكل ما هناك أن قلبه قد تحطم .

ولا ندري ما كان سيحدث لولا أن دخلت السيدة مارش وقطعت هذا المشهد ، لقد أرادت أن ترى ابن أختها وتفاجئ الجميع

بزيارتها ، فتسللت دون أن يشعر بها أحد ، ولسوء الحظ كان الجميع في الطابق العلوي ، وليس في القاعة سوى ميغ وبروك الذي يبوح لها بحبه .

فضربت الأرض بعكازها وصاحت :

– يا إلهي ! ما معنى هذا بحق الإله !

فقفز السيد بروك إلى الحجرة المجاورة ، وظلت ميغ جامدة وقد احمرت كأنها حبة طماطم ، واستطاعت أن تحرك لسانها بهذه الكلمات :

– إنه صديق أبي ، مرحباً بك يا عمة .

فجلست العمة وقالت :

– لا ريب أنه صديق والدك ، ولكن ماذا يقول لك حتى يحمر وجهك هذا الاحمرار ؟

غمغمت ميغ :

– جاء .. جاء يأخذ مظلته .. إنه السيد بروك الذي ..

– كيف ؟ معلم الفتى لورنس ؟ آه .. فهمت الآن ، لقد ألمحت إلي جو بشيء من هذا ، وآمل ألا تكوني قبلت يا صغيرتي !

وكانت العمة مارش مستاءة جداً .

فقالت ميغ :

– سأنادي ماما .

– لا .. لا تناديها قبل أن تجيبيني ! إذا قبلت الزواج بهذا البروك فلن تنالي قرشاً واحداً من الميراث ، هل هذا واضح .

ووقفت وجهاً لوجه شخصيتان متناقضتان ، العمة مارش البارعة في إغضاب الناس ، وميغ العنيدة إذا جوبهت في رغباتها الكامنة ، ولو أن العمة رجتها أن تتزوج السيد بروك لرفضته ، ولو أمرتها ألا تتزوجه لأبت ذلك ، فهي تتحول من النقيض إلى النقيض بسهولة تامة ، ولذلك أجابتها بهدوء :

– سأتزوج من أشاء ، ولتذهب أموالك إلى حيث تريدين .

– حقاً ، أهكذا تواجهين نصيحتي ؟ ستعلمين ما معنى الحب بين أربعة حيطان لا مدفأة فيها .

وكان يبدو على ميغ استعدادها للدفاع عن بروك وإن كانت عواطفها غير واضحة تجاهه ، فوضعت العجوز نظارتها لكي تتأمل ملامحها الشرسة جيداً ، وقالت بلهجة مهادنة :

– اسمعي يا بنيتي ، كوني عاقلة كما عهدتك ، ولا تتزوجي رجلاً فقيراً فتفسدي حياتك ، ينبغي أن تتزوجي رجلاً غنياً لتساعدي أسرتك ، هل فهمت ؟

فأجابتها ميغ متحدية :

– ليس هذا رأي والديَّ ، إن جو فقير ، ولكنهما يحبانه .

– نعم .. ولكن والديك ليس لهما إدراك حسن ، ولم تعودي طفلة ، وهل هذا البروك من عائلة غنية ؟

– لا بالتأكيد ، ولكن له أصدقاء .

– أصدقاء ؟ الأصدقاء يختفون حين تسوء الأحوال ، ستتعلمين هذا مستقبلاً ، وما مركزه الاجتماعي ؟

– ليس له مركز .. ولكن السيد لورنس ..

– آه .. لا تتحدثي عن هذا الشيخ الغريب ، كنت أظنك عاقلة ، فهل تتزوجين رجلاً يكدح طول حياته ليكسب لقمة العيش ، على حين تكونين قادرة على حياة اليسر إذا أصغيت إلي ؟

قالت ميغ :

– أنت مخطئة يا عمتي ، جون عالم وشجاع وهو نشيط قادر على العمل ، والجميع يحبونه ويحترمونه ، وإني فخورة لأنه يفكر بي ، وأنا فقيرة ولا أملك شيئاً .

وكانت ميغ وهي تدافع عن جون في غاية الحسن .

قالت العمة :

– هذا الفتى يعرف ما يريد ، وهو يعلم أن لك أقارب ميسوري الحال ، لقد حَسَبَها !

– كيف تجرؤين على قول هذا ؟ أمنعك من إهانته ! كلانا على استعداد للعمل ولا نحتاج أحداً ، ولست خائفة من الفقر لأني أعاني منه على الرغم من أقاربي الميسورين ، وسأكون سعيدة معه لأنه يحبني ولأن ..

وتوقفت ميغ فجأة ، إذ تذكرت أن جون في الحجرة المجاورة ويسمع حوارهما ، ولم تلحظ العمة ذلك ، بل تمادت في معارضتها ، وأبلغت ميغ أنها تتوقع منها الزواج برجل غني ، وإذا خالفت رأيها فلن تورثها شيئاً ، وأنها ستعود لترى والدها مرة أخرى . ثم استندت إلى عكازها وغادرت الحجرة .



وارتمت ميغ على الأريكة تبكي ، ودخل بروك مسرعاً ، وجثا بقربها وهو يقول :

– لقد سمعت كل شيء رغماً عني ، شكراً لك يا ميغ ، إني أحبك .

حينئذ دخلت جو وظنت أن ميغ قد تخلصت من بروك ومظلته ، فوقفت أمام الباب مذهولة ، وتمتمت :

– لا .. هذا غير ممكن !

وكان بروك وميغ يتعانقان في القاعة ، ورآها بروك فتقدم إليها وقال :

– باركي لنا يا أخت زوجتي المقبلة .

ثم قبّلها على خديها ، فجرت إلى الطابق العلوي واقتحمت الغرفة على والديها ، وقالت :

– افعلا شيئاً ما ، إن بروك يسيء معاملة ميغ وهي مستمتعة بذلك .

فتبادل الوالدان الابتسام وهبطا الدرج .

ونقلت جو هذا النبأ إلى إيمي وبيث ، فوجدتهما مبتهجتين به على العكس مما توقعت ، فقالت بصوت مأساوي :

– أنتما أصغر من أن تدركا !

أثناء الغداء ظلت جو كئيبة والجميع فرحون مبتهجون .

وحين فتح الباب ودخل لوري قالت :

– ها قد جاء إنسان عاقل !

وقد خاب ظنها إذ كان لوري يحمل باقة أزهار كبيرة إلى السيدة جون بروك المستقبلية ، وقد رسخ في يقينه أنه السبب في حدوث هذه الحكاية .

وحين قدم السيد لورنس جلس الجميع في القاعة ، وانزوت هي في ناحية كالبائسة .

قال لها لوري مرحاً :

– لا تبدو عليك الفرحة يا آنسة جوزفين ؟

فقالت جو :

– اسمع يا لوري ، الجميع موافقون على هذا الزواج حتى أنت ، ألا ترى أننا سنفتقد ميغ ؟

قال لوري :

– لا ، ولكنك سترتجين السيد بروك ، وأنا هنا أيضاً ، ولن أفارقك .

فأدخل هذا القول السعادة على قلب جو فأمسكت يده بعاطفة ، فقال :

– لا تقلقي ، سيهتم جدي به حتى ينطلق في الحياة ، وحين أتخرج من الجامعة ، سنقوم بجولة حول العالم .. موافقة ؟

فقالت فرحة :

– نعم طبعاً .

كانت بيث تعزف على البيانو ، وإيمي ترسم ميغ وبروك معاً ، والسيدة مارش تتبادل النظرات الحانية مع زوجها ، وقد تذكرا بداية سعيدة حدثت منذ عشرين سنة .

وجلست جو في مقعدها المفضل ترقب هذا المشهد العائلي الذي ترفرف عليه السعادة ، وتتبادل النظرات مع لوري في المرآة الكبيرة أمامها .

الفهرس

نســاء صغيــرات

لويزا ألكوت

يتطوع الدكتور مارش في الجيش ، تاركاً زوجته وبناته الأربع ، وكانت الحياة قاسية بالنسبة لميغ المزهوة بنفسها ، وجو لمتوفزة ، وبيث الخجولة ، وإيمي التي لا يطاق غضبها. وقد أزال عن هذه الحياة رتابتها جارهن الشاب لوري ، وعمتهن العجوز ، وذات يوم يصاب الأب بمرض عضال ، فكيف تواجه العائلة هذه الكارثة؟

صدر من هذه المجموعة :

1 ـ الذئب الأبيض
2 ـ توم سوير
3 ـ الهندي الشجاع
4 ـ مذكرات حمار
5 ـ نداء الغابة
6 ـ روبنسون كروزو
7 ـ هايدي
8 ـ حكايات أندرسون
9 ـ عشرون ألف فرسخ تحت البحار
10ـ ريمي الصغير
11ـ نساء صغيرات
12ـ جزيرة الكنز
13ـ حول العالم في ثمانين يوماً
14ـ كوخ العم توم
15ـ شرلوك هولمز
16ـ مغامرات الكابتن فراكاس
17 ـ حـ
18 ـ الحـ
19 ـ كتـ
20 ـ أحـ
21 ـ الـ
22 ـ الشـ
23 ـ أحـ
24 ـ فتـ

تصميم الغلاف : هيثم فرحات

دار ربيع للنشر
RABIE PUBLISHING HOUSE
سورية - حلب هـ ٢٢٢٤٧٠٨ - دمشق هـ٢٢٣٠٢٨٣